مجلة الإمارات للبحوث الهندسية 18 (2) 1-19 (2013)
(مقالة نظامية)

التَصميم الحضري مقابل المخطط الشامل كضَرورة حَتمية لإدامة القاهِرة العاصِمة

عبير محمد رضا الشاطر
كلية الهندسة–جامعة عين شمس–
القاهرة –مصر
Abeer.elshater@yahoo.com

هشام جلال أبو سعدة
قسم العمارة –المركز القومي لبحوث الإسكان والبناء–
القاهرة–مصر
habusaada@yahoo.com

(وردت وقبلت للنشر)

In the current third millennium, cities seem to be more livable cities. Otherwise, these pay the professionals in architecture and the scientific fields with data processing for the apparent collapse in urbanization; theories, methods, techniques and mechanisms at the time they may seem new. While derived education institutions and research centers in the West of his theories and ideas have not been interested in artistic professional practice. In addition to achieving sustainability in Cairo city, it is better follow certain scientific methods as western cities did. This can be started from human needs, urban formation, and urban aesthetics towards high technology, welfare and comfort. This is all to make the Egyptian cities livable and preferred ones. The current paper follows the indicative/analytical approach to discover the inevitable problems and citizen points of view. I) what are the motivation behind the point of view of those inhabitant and visitors, whether they do not know that the ability to live in the city and interstitial preference depends on the conscious/awareness towards maintenance the cities context? II) Reviewing applications with the comprehensive plan to recognize the need to activate the stages of medium and long terms before the real solutions of future moving out. III) Not ignoring the obligatory application of a detailed urban design; calls for the need to activate it in order to support the sustainability of cities. The result is an attempt to break a new perspective to the concept of "emptying the cities," fit for the rebuilding of Cairo as a capital city in order to be livable city as well as preferable.

حَلت الألفية الثالثة على أعَم مَدائن العالم المُتقدِم الكُبرى لِتوحي بأنها ألفية مَدائن قابلة للعيش فيها. لِيَدفع المُختصون في عِمارة وعُمران المدائن بمُعطياتِ مَجالاتٍ عِلميةٍ وعَمليةٍ لمُعالجةِ التداعي البادي في البناء؛ فابتكروا نظرياتٍ وطرائقٍ وفنياتٍ وآلياتٍ بَدَتَ في حِينها جديدة. ففي حِين استقت مؤسساتُ تعليمٍ ومراكزُ بحوثٍ في الشرق من الغرب نظرياته وأفكاره تنظيرًا لم تَلقَ محلاتِهم التطبيقية اهتمامًا بفنياته وآلياته. لحَتَّى امتلئت مِصر برسائلٍ علميةٍ وأوراقٍ بحثيةٍ في حين ظلت حالة مَدائنها في التداعي؛ أيّ في حين بان أثر التوليف بين تنظيرٍ وتطبيقٍ في الغرب على النقيض ظلّ الشرق مُنتحيًا جانب التنظير. تستهدف الورقة الحالية المختصون لاتباع أسلوبًا عِلميًا مَنهجيًا لمداواة تداعيات مَدائن مِصر الكُبرى انطلاقًا مِمّا فَعله الآخرون. فمن المَنطقي لِاستدامة مَدينة القاهِرة العاصِمة البدء بخطواتٍ مُنتظمةٍ مُتتابعةٍ كما فعلها الغرب ابتداءً بالاحتياج الوظيفي، ثم الشكلي فالجمالي انتهاءً بالتقنيةِ والمتعةِ والوفرةِ فالرفاهة، فإذا ابتغى المِصريون مدينة القاهِرة عاصِمة حَضارية حَضارية "قابلة للعيش فيها ومُفضَّلة" فإنه يجب تفعيلُ نظرياتٍ وأفكارٍ– ظلت مَسطورة في مدوناتٍ ورقية. لم تكتف الورقة الحالية بإبانة أن ثمة قصورٌ في الاستفادةِ من تطبيقاتِ فن علمي همّه عِمارة وعُمران المدائن، إنما اِتبَعَتَ مَدخلًا اِستقرائيًا تحليليًا (قراءاتٌ أدبيةٍ واستباناتٌ نظريةٍ)– تَجريبيًا (في سياقِ حي الخليفة كحالةٍ دراسيةٍ)؛ لإبانةَ أن ظَواهِرَ تداعي العاصِمة مَنبته عدم اِتباع الخُطى التراثُية التي اتبعها الغرب لإعادة بناء مَدائنِه مُذ مُنتصف السِتينيات؛ أيّ في نواحي الإستفادة من: أ.) مُنطلقاتُ مَعرفةِ آراء القانطين في تلك المدائن والزائرين؛ غيرَ العَارفين بأن قابلية العيشُ في المَدينة وتَفضيلها هى نَبتة وعي فراغي بعِمارة وعُمران مَدائنٌ حَضاريةٌ ذاتَ سياق، ب.) مراجعة تطبيقات المُخطط الشامل مع التسليم بضرورة تفعيل مراحله متوسطة وآنية المدى قبل الانطلاق لحلولٍ مُستقبليةٍ أبديةٍ، ج.) غيرَ مُتجاهلينَ لفروض التصميم الحضري تطبيقًا تفصيليًا؛ لتدعو بضرورةِ تَفعيله لدعم المدائن بغيةِ اِستدامتها. فالنتيجة مُحاولة الخروج بمنظورٍ جديدٍ لمفهوم "تفريغ المدائن" يَصلُح لإعادة بناء القاهِرة العاصِمة باعتبارها مدينةٌ حَضاريةٌ حضريةٌ قابلةٌ للعيشِ فيها؛ بل ومُفَضَّلة.

الكلمات المفتاحية: التصميم الحضري، فن وعلم بناء المدن، الوعي الفراغي، القاهرة العاصمة، مدرسة السلطان حسن، قصر الأمير طاز

1- مقدمة: حالة المَدينة المِصرية

تبدو المدائن الحضرية المِصرية الكُبرى أنها مَدائنٌ غيرَ قابلة للعيش فيها، ففي كثيرٍ من الأحيان تبدو أنها قد بدأت تلفُظ قاطنيها، بيد أنه في المقابِل ازدادت كثافاتها البنائية والسكانية؛ خاصةً القاهِرة العاصِمة باعتبارها المُفَضَّلة. أما إن بانتَ على مستوى العامة والخاصة أنها مدينةٌ جاذبة– أيَّ ليست طاردة– وأن التفريغَ فيها مُستحيلًا– فإنه يبدو

ذلك كذلك– عدا في حال تساوي مَدائِن مِصر كافة مع ما تقدمه القاهِرة العاصِمة ومَثيلاتها من المدائِن الكُبرى.

1.1. وصف المسألة البحثية: مُعاناة المدائن الحضرية المصرية: طرح الظاهراتية- فينومونولوجي

تدور مُشكلة هذا البحث الرئيسة حول فعل التأثير الإيجابي الذي تحدثه المناطق التقليدية في جعل القاهِرة مَدينة مُفَضَّلة، ذلك الفِعل الذي كانت تُحدثه في الوعي البشري في الماضي لتفتقده الآن في فوضى الوضع الراهن؛ فيَكمُن الدليل عبرَ أيَّ تجربةٍ مدينيةٍ يعيشها قاطني القاهِرة وزائريها. لتبدو الأصالة في استطلاع رأي قاطنيها (قاهريين– ومِمَّنْ هُم من أُصولٍ ليست قاهرية) لمعرفة حالة مدينة القاهِرة العاصِمة: أهي مدينةٌ مُفَضَّلة أمْ أنها غيرُ قابلةٌ للعيش فيها؟ فالتساؤلات دارت حول: أ.) أسباب تمسُك الكُلّ بالإقامة فيها على الرغم من كمِ مُشكلاتها الحياتية، ب.) مدى القبول بفكر تفريغ العاصِمة بشرًا وحجرًا برغبة، ج.) مدى قابلية سكان القاهِرة الأصليين وممن هم من أصولٍ غيرَ قاهرية للخروج منها؛ أيّ انتقالًا لمدائنٍ حضاريةٍ تُحقق لهم حياةً أفضل، د.) ترتيب معايير أفضلية القاهِرة من وجهة نظر قاطنيها وزائريها، ثم لمعرفة: أإن توافرت تلك المعايير في مدائنٍ أخرى أستكون سببًا رئيسًا للانتقال منها– أيّ لتفريغها– أمْ أن المسألةَ ليست كذلك؟

أما الجديد فيكمُن في جانبين: أ.) إشراك عينة مِصرية للإجابة على الطرح المعني بسببية مَحبة القاهِرة، بتمرير استبانة استطلاع رأي موجهة عبرَ شبكة الأنترنت ولقاءات موجهة، ب.) إعداد تصور لتجربة وعي فراغي وفق نظريتي السياقية والطبقات المُضافة باعتبارهما من ضمن أهم نظريات التصميم الحضري غيرَّ مفعلين لتطبيقاتهما في الفكر المِصري المُعاصر، ذلك للمقاربة بين الاستفادة من ذلك الفن العلمي وحقيقة الواقع الحالي المُتجاهِل للتراكُم البنائي على مرِّ الزمن. فمن هنا تكمُن الإضافة الرئيسة المَنوطة بطرحِ تصورًا لإعادة بناء مدينة القاهِرة العاصِمة اِنطلاقًا من منظورٍ لمفهوم "تفريغ المدائِن الحضرية". ليبني هذا العمل مساهمته حول تأثير "فكر التفريغ" على البشر ثم الحجر، فإن كانت الغاية الرئيسة كامِنة في خفضِ سكان المدينة لعددٍ يتناسب مع مساحتها دون ترك أدنى فرص للزيادة في مدى زمنيٍ قصير فإنه يقدم ذلك عبرَّ طرح فكر حضري أساسه "المُغادرة والترك برضا بديلًا عن الاستبعاد بالإزالة أو النقل"، الأمر الذي لا يُمكن تحقيقه إلاَّ في إطارٍ فكريٍ ينطلِقُ من زيادةِ مساحةِ المعَمُور المِصري القابل للحياة بمعاييرِ أفضليةٍ تُنافس تلك المَوجودة في العاصِمة.

أما مجالات طرح مُشكلات المدائن الحضرية الحضارية المِصرية فسيكون عبرَّ حالة مَدينة القاهِرة العاصِمة بالتركيز على مداها الزمني الحالي– بالإشارة إلى أن تراكمَ المُشكلاتُ مُمتدًا مُنذ مُنتصف سِتينيات القرن الفائت لحَتَّى نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة – ليختص مجال هذا العمل البشري بطوائف عامة المِصريين وبعض خاصتهم، إنما بالتركيز على– قاطنيها وزائريها– من أهليها ومِمَّنْ هم من أصولٍ غيرَ قاهِرية. ليحصُر هذا العمل مجاله المكاني في حي الخليفة لاختبار إمكانية تقديم تجربة وعي فراغي قد تُحدث اختلافًا في جوانب التفضّيل بديلًا عن حالة الوضع الراهِن. أما تلك التجربة فتعتمد محاولة بعثها عبرَّ تثمين دور فنٌ علميٌ قديمٌ لم يدخُل الواقع المهني– إلاَّ قليلًا– على الرغم من كونه مُسيطرًا تمامًا –نظريًا وتعليميًا– ألاَّ وهو "عِمارة وعُمران المدائِن الحَضرية: التصميم الحضري"، بالارتكاز على تفعيل أفكار "المُخطط الشامل"؛ راعي بواعث الخطط المُستقبلية في مُستوياته الثلاثة: طويلة ومتوسطة وآنية المَدى.

ليختبر هذا العمل **فرضية** مَنطوقها "أن المخطط الشامل القائم على فكر تفريغ المدائن المرغوبة، بجانب تفعيل تطبيق أفكار التصميم الحضري النظرية –المعنيان كليهما بالمناطق ذات القيمة داخل القاهِرة العاصِمة– يُشكلان اتجاهًا قويًا لاستدامة تلك المدينة، مع ضرورة الاستعانة بأفكار المُخطط الشامل متوسطة وآنيةُ المَدى، بديلًا عن طويلة المدى في تزامنٍ مع بعثِ أفكار عِمارة وعُمران المدائن الحضرية من حيز النظرية إلى التطبيق"، عبرَّ ثلاث إشكاليات: أ.) فإن أُرجعت كافة مُشكلات المدائن الكُبرى لغياب الموائمة بين عدد السكان والمساحة المأهولة، فإنه يُمكن القول أن كافة أسباب مُعاناة مدينة القاهِرة العاصِمة تتركز في أنها تحملُ أعدادًا من البشر يفوق قدرتها المساحية على تحمل تقديم الخدمات المُلائمة لهم؛ لتنطلق الإشكالية الأولى عبرَّ مقولة منطقية، هي: "إن تم إحداث مُوازنة مَقبولة بين عدد السكان والمساحة المأهولة عبرَّ تفريغ المدينة من البشر والحجر الزائدين، بمغادرتهم لها، برغبتهم، ثم إعادة ترتيب الكيان البنائي بما يُتيح الفرصة لحياة البقية الباقية معيشة تُلبي طموحاتهم، بل ولِتوفر لهم معايير الأفضلية، فإنه ستكون قد حُلت غَالِب مُشكلات العاصِمة."، إنما ستواجه تلك المقولة بردِ فعلٍ مَنطقيٍ ومقبول، تتتبعه تساؤلاتٍ بَديهيةٍ: مَنْ يُغادر ومَنْ يبقى؟ ما الذي يَدفع بأحدٍ لتركِ العاصِمة؟ كيف يُمكن صياغة منظومة مُغادرة آنية المدى (فترة خمسة أعوام)، لحَتَّى يشعر المواطن–الباقي أو المُغادر– بمكاسبٍ حقيقية. ب.) بيد أنه إن بدا التصميم الحضري فنًا عِلميًا مَعرفيًا له نظرياتٌ وطرائقٌ وفنياتٌ وآلياتٌ– قام الغرب بتفعيلها في تراتبٍ في حين اكتفى الشرق بتقديمها على المستوى المدرسي/التعليمي فلم تنحى أيّ منحيًا تطبيقًا حقيقيًا، فإن ذلك أدى إلى قصورٍ باينٍ في بناء الهيكل المَديني الحَضاري الحضري لعامة المدائِن المِصرية الكُبرى والقاهِرة العاصِمة تحديدًا، لتنطلق الإشكالية الثانية: "أنه بتفعيلِ فنيات وآليات المنظور الفكري الداعي للاِستدامة عبرَّ أفكار: التفريغ والخروج برغبة فإنه يُمكن رفع أفضلية العاصمة؛ إنما عبرَّ تفعيلٌ لصحيح فنٌ علميٌ معرفيٌ قديم"، ج.) لتقوم إشكالية العمل التجريبي على توجهٍ وحيد: "أن تفريغ المدينة العاصمة من شاغليها– قاطنيها وزائريها– الآن وليس غدًا، سَيُحقِق آمال وطموحات الباقين والمُغادرين– على الرغم من عدم اتفاق المِصريين على ذلك الفكر أبدًا– كما أنه إن كانت المناطق التقليدية ذات الزخم التراثي يُمكنها بالضرورة الدفع نحو تكوين تجارب إنسانية– فراغية واعية فريدة فما الحال بمناطقٍ حَضاريةٌ حضريةٌ

مُمتلئة، بل غنيةٌ ليس فحسب بصروحٍ تذكاريةٍ فائقةِ الروعة لكن مُرتبطةٌ دائمًا بخلفيةِ القاطنين والزائرين المُجتمعية الثقافية– الاقتصادية. فمن ضِمن أهم مُشكلات المدائن الحضرية المِصرية– القاهِرة الكُبرى والعاصِمة– أنها باتَتَ تَحملُ عِبئًا سكانيًا وبنائيًا يزيد عن قدرة أيَّ مَدينة على الاحتمال، كما أن الخروج من القاهِرة حالًا–على الرغم من صعوبته– إلاَّ أنه ليس مُستحيلًا، بل أنه الحل الوحيد لحل مُشكلات المدائن الحَضرية محدودة المساحة، زائدة الكثافتين السكانية والبنائية. ليختار هذا العمل تجنيب فكر التخطيط الشامل بعيد المدى ليقدم بديلًا له أدلوجة حضرية بِغية استدامة القاهِرة العاصِمة، عبرَّ تحديد مُعطيات بناء منظور فكري جديد، لا ليعتمد على خططٍ قياديةٍ– مجتمعيةٍ فحسب إنما أيضًا على حلولٍ مِعماريةٍ وعُمرانيةٍ؛ أيَّ همها تطبيق حلول غايتها "تفريغ المدينة من مُسببات ارتباكها العضوي" "Urban Unloading".

لتتركز أهداف ورقة العمل الحالية في: أ.) البحث عن حقيقة تفضيل المصريين للإقامة في القاهِرة (قاهريين– بأصولٍ غيرٍ قاهرية)، مع ترتيب معايير أفضليتهم لهذه المدينة، ثم معرفة آرائهم في فكر التفريغ: بشرًا وحجرًا، انتقالًا من الداخل للخارج؛ حالًا. الأمر الذي يدعو لضرورة إعادة النظر في فكر المُخطط الشامل طويل المدى ونقده، ثم تثمين فكر المخططات قصيرة ومتوسطة المدى، ب.) إبانة أن ثمة فنٌ علميٌ معرفيٌ قديم خاص بعِمارة وعُمران المدائن الحضرية، موسوم بالتصميم الحضري، لم يدخل النطاق التطبيقي المِصري حَتَّى الآن؛ بدليل مُعاناة القاهِريين تحديدًا في صياغتهم لتجربة وعي إنساني/فراغي في الحيز البنائي. فالنتيجة: أ.) مُقترحٌ لمنظورٌ فكريٌ جديدٌ يستهدف إخراج مدينة القاهِرة العاصِمة من معاناتها، والذي قد لا يصلح البتة ليكون مدخلًا متكاملًا أو حَتَّى منهجًا يُمكن تطبيقهما على أيَّ مدينةٍ أخرى. إذ فَحَكَمَ البحاثان بمحليتهما الشديدة وثيق الصلة بطبيعةِ المواطن المِصري القاهري تحديدًا؛ فالتجربة مبنية على حقائقٍ واقعيةٍ ورغباتٍ إنسانيةٍ ذاتيةٍ موجهة، بعيدًا عن أي تجارب لدولٍ غربيةٍ أم عربية، لذا لن يقدم البحث أيَّ مناهجٍ مُكررة، أو محاولاتٍ وتجاربٍ مَنقولة لتخليص المدائن من مُعاناتها، إنما أسس تصوراته على دراسةٍ استقرائيةٍ بمُشاركةِ المواطن المِصري القاهِري، ب.) تقديم مثالًا تجريبيًا لكيفية طرح تجربة وعي إنساني/فراغي سياقي عبرَّ رحلة اختارها الباحثان بعناية، (الشكل1).

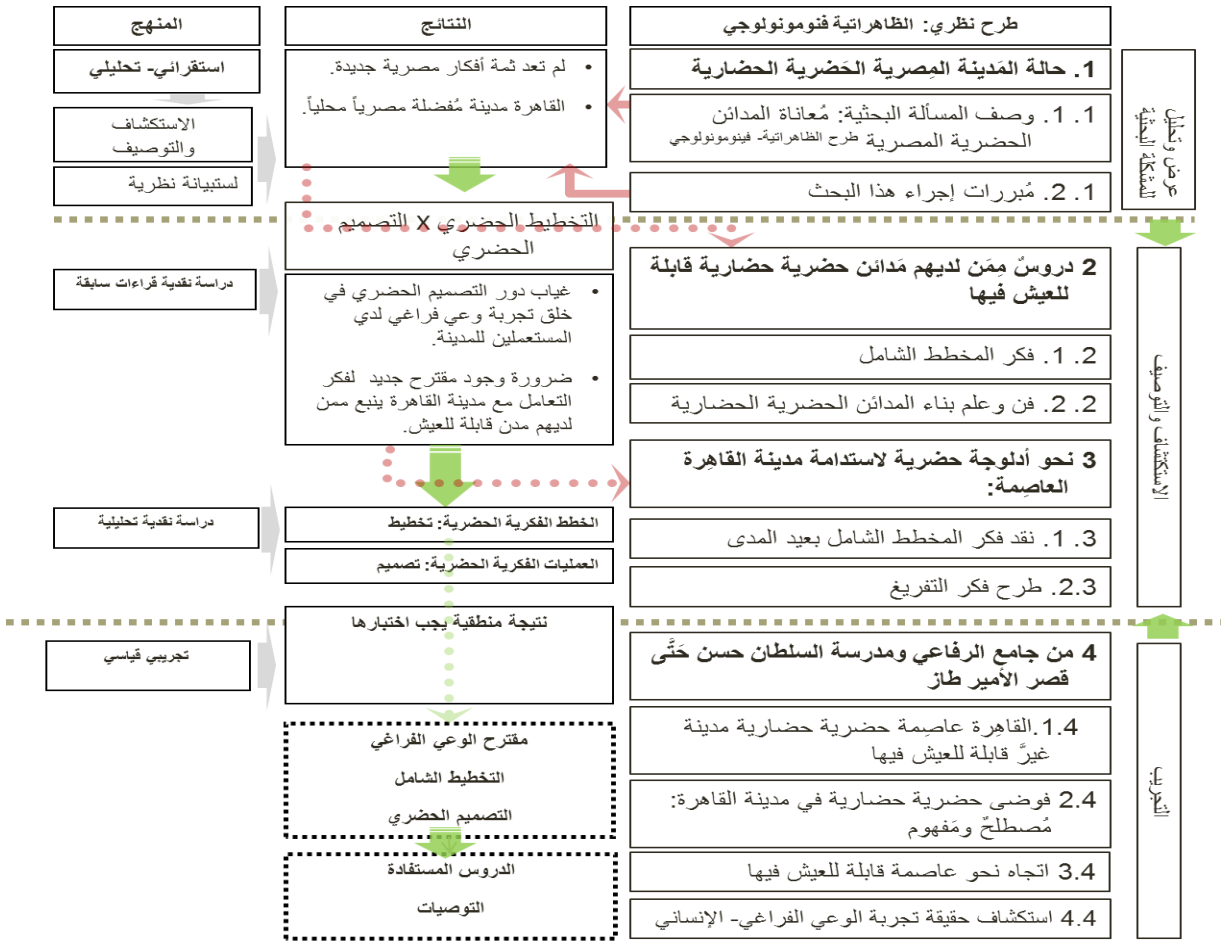

شكل (1). المنهجية والطرق البحثية [من إعداد الباحثة]

يتبع هذا البحث منهج الظاهراتية فينومونولوجي في طرحهِ لمُشكلاتِ القاهِرة العاصِمة على وجهِ التمثِيل، مرورًا بعرض نتائج دراسة استقرائية- تحليلية تخُص الأدبيات ذات الصلة لتوثيق الطرح، انتقالًا للعمل الميداني، مُستهدفًا تفريغ استبيانين: واحدةٌ جامعةٌ لمعرفة حقيقة أفضلية مَدينة القاهِرة، أما الثانية فمحدودة تستهدف قياس حقيقة قدرة المِعمار على تكوين تجربة وعي فراغي في حي قاهري ذي قيمة للدفع نحو رفع أفضليته، انتهاءً بتقديم نموذجًا تجريبيًا، اعتمد فيه البحث على تصور تجربة وعي فراغي مُنطلقة من فكر تفريغ الأحياء المُكتظة، دون مُخالفاتٍ مجتمعيةٍ، بل وبرغبةٍ إنسانيةٍ عند الرحيل. بنت هذه الورقة منهجيتها على طرحٍ استقرائيٍ تحليلي؛ بالاستعانة بطريقتين: أ.) تحليل المضمون، لرصد ظواهر يومية لحاصل مُعاناة أهل مدينة القاهِرة، عُمِقت تلك الظواهر بالاستعانة بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة والإلكترونية، ب.) استبانة نظرية لعينة مُختارة من قاطني وزائري مدينة القاهِرة المولودين فيها، أو مقيمين وعائلاتهم تقيم خارجها، أو ومُهاجرين داخليًا، أو مّقيمين في مُستقراتٍ غيرَّ رسمية/عشوائية تُشعرهم بأنهم أقل أدمية عن غيرَّهم. تم الاستعانة بشبكة الأنترنت (ملحق 1) لتجميع الآراء بقصد الوصول لحلولٍ واقعيةٍ قريبة؛ أيّ غيرَّ بعيدة المدى. بينما اعتمد فكر التجريب لتتبع التجربة المدينية الجديدة في حي الخليفة على طريقتين: أ.) ملاحظة بالمشاهدة لعيناتٍ من صروحٍ تذكاريةٍ حضاريةٍ مُشيدةٍ لرصد علاقتها بالفضاءات الحضرية للتحقق من وجود-أو عدم وجود- علاقة ومدى مشاركتهما في تجربةِ سياقٍ حضريٍ جديد، ب.) استبيانة نظرية محدودة لعينةٍ عشوائية، إنما مَعروفة، مرَّ أفرادها عبرَّ خطِ سيرٍ محدد للبحث حول مسألة وحيدة: هل تكوَّن في وعيهم شعورٌ بتجربةٍ سياقيةٍ فريدة مُكتسبة؟

1. 2. مُبررات إجراء البحث

تخَفى معاناة القاهِرة العاصِمة في مُستهل عقد الألفية الثالثة الأول-في أيامِ العمل- من تكدسٍ لم يعد يتحمله أحد؛ ففي أيام العطلات الرسمية تهدأ المدينة بخروج قاطنيها وزائريها.[1] تعد القاهِرة من أكثر مدائن مِصر الحضرية قدرة على جذب زائرين إليها؛ لِتُشير بعض مدونات الشبكة المعلوماتية إلى أن ثلث عدد سكانها من غيرِّ المولودين فيها،[2] كما تُشير مقالات صحافية أن أكثر من خمسة مليون راكب يدخلون القاهِرة يوميًا للعمل والتعليم والعلاج والترفيه وعمل أشياء أخرى.[3] بيد أن العاصِمة على الرغم من أفضليتها الظاهرية إلاَّ أنها على مستوى عُمرانها غيرَّ قابلة للعيش فيها؛ فالسائر في طرقاتها لا يُمكنه تكوين تجربة وعي فراغي متمايزة، تُصرح بأفضليتها وقابليتها للعيش؛ فثمة قصور في تفعيل فن علمي مجاله عِمارة وعُمران المدائن الحضرية والموسوم بالتصميم الحضري بغرض تفعيل تلك الأفضلية والاستمتاع للعيش فيها على حد سواء. فتمثلت مبررات إجراء الدراسة في ثلاثة محاور تمثل الأول والثاني في التناقض الظاهر بين كون القاهرة مدينة جاذبة ومستعمليها لايشعرون بقابليتها للتعايش، والثالث بغرض استكشاف حقيقة تجربة الوعي الفراغي كمحرك جوهري في الفعل ورد الفعل بين البشر والحجر.

1. 2. 1. القاهِرة مدينة جاذبة

أولى تلك الدلالات بانت عبرَّ مُشاهداتٌ ميدانيةٌ لأعدادٍ هائلةٍ قادمة يوميًا عبرَّ منافذَ دخولٍ رَسمية، مع تبين الفرق الشاسع بين أعداد السيارات في أيام العمل. أما ثانيها فيُمكن تركيزه في حال المدائن المحيطة بالمدينة العاصِمة التي تفتقد لما تمتلكه العاصمة من إمكاناتٍ حضرية، وأنه بمقدارُ فرص العمل والتعليم والترفيه الذي توفره العاصِمة، فلا تتمتع بقية المدائن الحضرية الأخرى بقدرٍ كافٍ من الفرص التي جعلتهاغير جاذبة فحسب لزائريها -أو بشكل قد يعيد إليها مواطنيها ليُخفف العبء- إنما تجعلها أيضًا حالة طاردة لقاطنيها أنفسهم. ليعتمد هذا الفاصل في تأكيده للطرح طريقتين:

أولًا- تحليلُ المضمون المؤكد لصحة الطرح عبرَّ تتبع محتوى بعض مقالاتٍ منشورةٍ في صحافةٍ ورقيةٍ وإلكترونيةٍ لتشير أن القاهِرة لديها فائضُ مشروعاتٍ يجعلها من المدائن الحضرية المُفضلة على مستوى العالم، وهي ليست مُفضلة محلياً؛[4] كما أنها تتسم بكمِ مُشكلاتٍ يجعلها مدينة غيرَّ قابلة للعيش فيها، لتركز مدونات شبكة الأنترنت ومحتوى بعض البرامج الحوارية (التوك شو) في العام (2010م)، مثل صباح الخير يامصر و(تسعين) دقيقة والعاشرة مساءً والبيت بيتك والقاهرة اليوم، على مُشكلاتٍ عدة، الأمر الذي يبين تأرجح مدينة القاهِرة بين "أنها مدينة ذات أفضلية بيد أنها غيرَّ قابلة للعيش فيها". فذلك ما دعى لضرورة إجراء استبانة نظرية رَحبة- قدر الإمكان- للوصول إلى إجاباتٍ محددةٍ عن الأفضلية وقابلية العيش.

ثانيًا- استطلاعٌ رأي أهم نتائجه كانت: أولًا- غالبية المِصريون ممن هم من مواليد القاهِرة ومن غيرَّ مواليدها يفضلون الإقامة فيها عن أيّ مدينة أخرى رُغم مُشكلاتها لأسباب منها: أ.) تمركز الخدمات العامة التعليمية والثقافية والصحية والترويحية فيها وبأسعار تُماثل مَثيلتها، بيدَ أنها تُقدمُ بكفاءةٍ أعلى، ب.) العاصِمة مُلتقى المشاهير وداعية للمكانة المجتمعية وأمل تحقيق الثروة، ج.) مكسبها سريع، لتوافر فرص عمل سهلة وآمنة نسبيًا وخاصة لغيرّ المتعلمين (متسولين، شحاذين، مناديو سيارات، باعة متجولون من أطفال الشوارع غيرَّ المرخصين، حارسي عقارات، بلطجية، عِمالة يومية بأجر)، د.) رؤية ما لم يروه في مدائنهم الحضرية، وفعل ما لا يُمكن فعله (تسول-بلطجة-تحرش-ممارسة رزيلة)، هـ.) سهولة الاستيلاء على أراضي الدولة وإنشاء مستوطنات غيرَّ رسمية والإقامة فيها دون مشقة، فبالمصالحةٍ تُصبح رسمية، فأغلب ساكني العشوائيات والمقابر من مترزقي اليومية. ثانيًا- رفض الغالبية العظمى من كبار السن مُغادرة القاهرة، حيث كانت نسبة مُفضلي مواليد القاهِرة لعدم المُغادرة إلى أيّ مكانٍ أخر تُمثل (90%)، بينما كانت نسبة

من هم من غيرِّ المولودين فيها ويعيشون فيها منذ فترة طويلة (89%)، في حين رحبت نسبة (30%) من غيرِّ أبناء القاهِرة الفعليين بالعودة لمدينتهم الأصلية بشرط توافر الخدمات الأساسية والرفاهة الموجودة في القاهِرة العاصِمة، لتجيء الخدمات مرتبة: عملٌ وعلاج (100%)، تعليمٌ وسكن ملائم (70%)، ترفيهٌ وترويح (30%)،

مازال غيرَّ القاهريين مِمّنْ هم من مدائنٍ أخرى (قريبة أو بعيدة) يُفضلون الإقامة في القاهرة، فلا يرغبون في العودة لموطنهم الأصلي، لأنها تمثل سوقًا أكبر للربح والمكانة، مقررين أنهم لن يغادروا لحَتَّى إذا توافرت في بلدانهم كافة ما يتوافر من خدماتٍ قاهِرية: حيث بلغت نسبة الرافضين لترك القاهِرة (48,8%)، أغلبهم فوق 35عام وجاهلين لسبب تعلقهم بالعاصمة، عدا نواحي الربح المادي والمكانة المجتمعية، في حين بلغ المرحبون بترك العاصِمة (41.7%) بانوا من شبابٍ متعلمٍ باحثٍ عن فرصة سكنٍ مناسبٍ بأسعارٍ مُناسبة؛ بشرط توفير فرص عمل حقيقية.

رفض أغلب القاطنين لمستوطنات غيرَّ رسمية رفضًا باتًا ترك تلك المستقرات لِمدائنٍ أرقى بنسبة (80%)، إنما أغلبهم من شباب عاطلٍ عن العمل، الباحثٍ عن رزقٍ سهلٍ من تسولٍ وبلطجة، إلاّ أن نسبة تبلغ (20%) رحبت بفكرة الترك إذا ما تم تعويضهم بأمكنة معيشة أفضل؛ الغالبية إناث. و.) بلغت نسبة الرافضين لفكر تفريغ القاهِرة العاصِمة (56,0%) والباقي اقترح توفير بدائل أخري، لتبلُغ نسبة الرافضين لمخططات بعيدة المدى (100%)، آملين أن تكونَ الخطةُ مُتدرجة بحلولٍ سريعة؛ لاتزيد عن خمسة أعوام، وأخرى متوسطة المدى؛ لا تزيد عن عشرة أعوام، إذ فالأغلب الأعم يرى أن الجيل الحالي له حقّ العيش في مدائنٍ مُفضلة دون ضرورة منطقية لينتظر أربعون سنة ليتحقق ذلك.

وبالاستعانة بواحدة من معايير ترتيب أفضلية المدائن[4]، ترتبت اختيارات المستبينين وفق خمس أولويات: أولاهم– تبحث في توفير الاحتياجات الضرورية– أ.) أمكنةُ سكنٍ مُلائمة لحياة كريمة، ب.) وظائفٌ ثابتة بمدخولٍ شهريٍ مُنتظم يُتيح الحصول على السلع اليومية المتوافرة بأسعارٍ معقولة، ج.) وضعٌ صحيٌ متاحٌ للغالبية: من جودةِ علاج وكفاءةُ أداءٍ للمستشفيات ودواء مُتاحٌ بأسعارٍ مناسبة، د.) تعليمٌ بجودة عالية: من نوعيةِ مدارس ومعاهد وجامعات مُتاحة للجميع، هـ.) وضعٌ أمنيٌ مُستقرّ: نسبة حدوث الجرائم لعدد السكان ونوعيتها، ثانيتهم– تهتم بحلِ مُشكلاتٍ مُزمنة– أ.) سهولة الحركة والانتقال: سيولة طرق وكفاية مواقف سيارات، ب.) نظافة الشوارع والفراغات البينية، ج.) اختفاءٌ للعشوائيات أو لِمخالفاتُ البناءِ، ج.) رفعٌ من قيمة المناطق التراثية والأثرية لتوفير فرص عمل وزيدة العائدات من السياحة، ثالثتهم، تبدو تَرَّفية– أ.) ترفيهٌ رياضيٌ مناسبٌ: من توافرٍ لملاعب رياضية لِتمتعٍ بها، ب.) أنديةٌ مجتمعيةٌ ومطاعمٌ وحدائق عامة وميادينٌ وساحات عامة للترويح، رابعتهم لزوم الرفاهة– أ.) وضعٌ اقتصاديٌ مُريح: توافر بنوك واستثمارات وفرص عمل إضافية، ب.) ترفيهٌ ثقافيٌ: توافر مجلات ثقافية وصحافة إلكترونية ودور سينما ومسارح، ج.) مقدار الحرية الشخصية والرقابة المجتمعية عليها والمبادرة واتخاذ القرارات، خامستهم– إنما ليست حتمية: أ.) أن يكون للمدينة طابع مِعماري عُمراني مُتفرد، ب.) الاهتمام بوجود معنى للمكان عبرَّ تجربة وعي فراغي في سياقٍ حضري. إنما البائن كنتيجة أولى: أنه لم تشغل تجربة الوعي الفراغي المقيمين في القاهِرة العاصِمة وزائريها باعتبارها مِعيارًا للأفضلية؛ فمعاناة جلب لقمة العيش والسكن والتعليم والعلاج والأمن، فسهولة الحركة والانتقال والنظافة وحل مُشكلات العشوائيات والمخالفات البنائية والرياضة والترفيه والترويح، تشغلهم عن مجرد تطوير في الحجر. كما أن أغلبهم لا يربط مسألة الصورة والحس الفراغي والذوق العام والعشوائيات والحرية الشخصية والرقابة والمبادرة في اتخاذ القرار بمسائل عدم قابلية العيش في العاصِمة، بقدر ما يعيدون الأسباب لسوء التخطيط في الغالب وصعوبة الحصول على القوت الضروري والدخل المناسب. ما دعى للتمهل في الاستجابة لتلك الآراء إذَ فكيف للمُخِطط أن يُسأل فيما يحقق الرفاهة والمرء مُفتقد لأبسط مُتطلبات العيش؟ نتيجة ثانية: فإن كان الأمر خارج عن قدرة المتلقي على الوعي والفهم وعدم القدرة على تقدير أن العِمارة والعُمران داعية ومسببة لمظاهر الارتباك فبات على المختصين النهوض بذلك الدور، فالمُصمم الحضري ليس فحسب مِعمار بَناء إنما أيضًا مُعلمًا ومُبادرًا ومُبدلًا؛ مهمته تغيير حال المدائن الحضرية إلى النسق الأفضل.

1. 2.2. القــاهِرة عاصِــمة حضــرية حضــارية مدينــة غيــرَّ قابلة للعيش فيها: فكر تخطيط وتصميم المدن

تمدّدَّت مدينة القاهِرة على مدى تعدى أكثر من ثلاثمائة وسبعون عامًا بعد الألف الميلادية الأولى، لتشهد العاصمة أرقى ما أنتجه الفكر الإنساني على مستوى تخطيط وتصميم عمِارة وعُمران المدائن؛ لتتعدد كافة أنماط العلاقات بين الكتلة النقية والفراغات الحضرية، ليظل الترتيب والتكوين الفراغي مُرتبط بالعلاقة العضوية بين مواضع النشاطات ومعابر الحركة والاتصال ممثلة في ممرات للمشاة. حَتَّى دخلت التقنية المُستحدثة لتبدأ حركة المركبات الآلية في تغيير أنماط التشكيل الفراغي، ليتعامل معها بشكلٍ فريدٍ من نقلٍ لما استحدثه الغرب لتنويعاتٍ من تخطيط المدائن الحضرية بدت في البداية ذات كفاءة. إما اليوم تُفَجئ مدينة القاهِرة بأنها لم تعد تحتمل كُلّ تلك المُتغيرات؛ ممثلة في: توزيعات استعمالات الأراضي وأنماط وكثافات البناء (الشكل 2). لم تعد مدينة القاهِرة اليوم تحتمل التكدس والتزاحم البنائي والإنساني الذي بات يَخنُق مُرتاديها، فبعد أن انتبه المختصون للمُشكلات البنائية والوظيفية ليظهر أنهم لم ينتبهوا لمُشكلات التمددات غيرَّ المُبررة، وارتفاع الكثافات البنائية والسكانية عن المسموح– وإن مثلت أولى معايير وأسس تخطيط وتصميم المدائن الحضرية– مما دعى لوجود مُشكلاتٍ أخرى لا تتعلق فقط بالنوعية والتنميط إنما بتشكيلية النسيج وتراكم طبقاته المُضافة عبرَّ العصور المتتابعة؛ حيث اتسمت القاهِرة بحالة وعي فراغي– إنساني في نطاقاتها التقليدية لفتراتٍ طويلة من الزمن، ليُضاف إليها اليوم تجربة مُغايرة، تجربة لا تتسم فحسب بعدم قدرة زائريها على الوعي بها إنما تصل لحد تجاهلها. حَتَّى باتت المناطق

التقليدية في القاهِرة العاصِمة فاقدة لعناصر تكوين أيَّ تجربة حقيقية لدي زائريها. نمت القاهِرة العاصِمة نموًا أفقيًا مُضطردًا لفترة زادت عن الألف وثلاثمائة عام أو يزيد، لتنتقل لنموٍ رأسيٍ مُتضاعفٍ دام حَتَّى مُنتصف الألفية الفائتة، ليزداد النمو الأفقي والرأسي دون تخطيط وتصميم موجه في مستهل الألفية الثالثة. ففي حين التزم مِعماريو القاهِرة منذ نشأتها حَتَّى انتهاء عهود الخلافة والولاة باتباع اشتراطات تراكم الطبقات المُضافة Cumulative Order لمكونات الهيكل الحضري، غاب عن مِعمارو الحاضر ذلك التوجه، فبانت العشوائية وغيرّ الرسمية حَتَّى في المناطق التقليدية. تلك الظاهرة المدينية الحضرية غيرَّ المألوفة هي التي دعت للقيام بتلك الدراسة، فكيف بدأت نشأة القاهِرة العاصِمة وتراكماتها الحضارية على مرِّ الزمن مُرتكزة على فكر تخطيط وتصميم واعد، بالرغم من عدم وجود نظرياتٍ وطرائقٍ تتعامل مع عِمارة وعُمران المدائن، مثلما توجد اليوم.

أ.الازدحام المروري في القاهرة[43]

ب.المناطق العشوائية[44]

ج.تداعي البناء [5]

د.الباعة الجائلين في القاهرة: (يمينًا) أمام مجمع التحرير بميدان التحرير، (يسارًا) وسط البلد[6]

شكل (2). مشاهد لحال القاهرة العاصمة في الألفية الثالثة.

2.1. 3. استكشاف حقيقة تجربة الوعي الفراغي

نهجت المحاولة الحالية مَنهجًا تجريبيًا، اعتمد في أوله على منهج الملاحظة بالمشاهدة المباشرة، حيث نمى إلى وعي الباحثين أنه عليهم بالضرورة إشراك مُختصين أخرين حَتَّى يَرسّخ لديهم اقتناعٌ بضرورة تكوين تجربة مشهدية في نطاقات المدينة ذات القيمة. إنما التركيز بدا على ما يُمكن أن تنقله تلك الصروح التذكارية فائقة الروعة– ليأتي على قمتها مدرسة السلطان حسن– من إحساسٍ مُختلف للزائر؛ فهنا جاء التأكيد على ضرورة إشراك المقيمين والزائرين. لذا أُجريت استبانة محدودة لمجموعة من طلاب أكاديمية الشروق، في نوفمبر من العام 2010م، خلُصت نتائجها إلى أن الغالبية العظمى من الطلاب لم تستطع تكوين تجربة يُمكنهم التعبير عنها بالرسم، أو حَتَّى توصيفها في نصٍ مكتوب. كما تبين أن عددًا كبيرًا من الطلاب ابدى إعجابه الشديد بالصروحِ المشيدة: جامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن وقصر الأمير سيف الدين طاز، كما لفتت انتباههم العلاقة التشكيلية بين الجامع والمدرسة وبينهما وجامع محمد علي في القلعة، إنما راحوا دونما أيَّ التفات لذكر أن ثمة تجربة مَشهدية يُمكن تكوينها لرحلة دامت سيرًا على الأقدام لأكثر من عشرة دقائق بين المدرسة والجامع لحَتَّى القصر، حيث كان التعليق بأنهم لم يستشعروا أنه يمكن أن تشكل المسافة بين تلك الصروح– وما شاهدوا من صروحٍ في مسارِ الرحلة– شيئًا يُمكن رؤيته أو تتبعه في سياقٍ حضاريٍ حضريٍ محدد. المعنى أن مُخرجات العينة التي تم اختيارها للتجريب أفادت –دون استثناءٍ– بالتراكمات الحضرية في المسار المُختار للتجريب، وأيضا الإحساس الديني الكامن عند الأغلب الأعم من السائرين وعيًا بأهمية المنطقة في التاريخ الإسلامي.

2. دروسٌ مِمَن لديهم مَدائن حضرية حضارية قابلة للعيش فيها الغرب الأمريكي والأوربي

عانت المدائن الأوربية والأمريكية في القرن الفائت بقدر ما تعانيه مدائننا الحضرية اليوم، إنما قبل أن تستفحل المسألة راح المختصين في

عِمارة وعُمران تلك المدائن في البحث عن حلولٍ لتلك المشكلات المُلحة، فانتبه فريقٌ ليبحث في مخططات المدائن ذات الحلول التي بدت مختلفة، فالبداية كانت بتحليل مخطط كاميللو سيت لمدينة فيينا ورسومات نولي لمدينة روما.[7] في حين اتجه فريقٌ آخر نحو النقد في مقالاتٍ وأدبياتٍ لجين جاكوب عن "حياة وموت المدن الأمريكية الكبرى"،[8] ليتشاركوا في صياغة نظرياتٍ قائمة على فلسفاتٍ وطرائقٍ فآليات. فسرعان مابانت علوم بمقرراتٍ في أرقى الجامعات، لتتزايد أطروحات الرواد والمنظرين لتوجهات الحلول، لحَتَّى صلح حال مدائنهم من الناحيتين الوظيفية والتشكيلية. فلم يكتفوا فبحثوا في علومٍ لدعم الجمال [9] لتحقيق السلام النفسي والآمان ثم السعادة، حَتَّى تبدلت صورة مدائنهم[10] ليفكروا في أن المسألة تعدت من الجيل الحالي إلى القادم: استدامة وحفاظ على الموارد الطبيعية والاصطناعية،[11] فصانوا وارتقوا، ثم باتوا يحاولون اليوم مُلحين في تحقيق التوافق البيئي ودعم متطلبات التقنية المُحققة وفرًا للموارد، لاهدرًا للطاقة، ففعلوا الطاقة البديلة ومدائنًا صديقة للبيئة،[12] اتجاهًا للتقنية فائقة الصغر وعِمارة وعُمران رقمي وافتراضي؛ حَتَّى باتت مدائنهم قابلة للعيش فيها بل ومفضلة.[13][14]

2. 1. فكر المخطط الشامل

المخطط الشامل في قمة هرم التنمية الذي يفتح أفاقًا لتنمية مُستدامة على مستوى الدولة فالأقاليم فالمحافظات فالمدن وصولًا للمخططات التفصيلية للأحياء والمواضع الأدنى مقياسًا؛ فهو مخططٌ يراعي التوزيع الأوفق للكثافات السكانية والبنائية وفق الطبيعة المجتمعية للدولة بما يتناسب مع التركيب الهيكلي لها، يضعه مُختصون في كافة مجالات التخطيط العليا. يغلب عليه اليوم فكر التوسع المناطقي والاتجاه نحو المساحات غيرَّ المأهولة بالسكان، لتكن غايته خفض العبء على النطاقات المأهولة التي باتت غيرَّ قابلة للعيش فيها. فبالإضافة إلى أنه مخطط منهجي يتبع خطط طويلة ومتوسطة وقصيرة الآجل، إلاَّ أنه بات اليوم تابعًا لفكر الاستدامة والاستمرارية.[15] المعنى أنه قابل للتطوير والإضافة في كُلِّ مستوى خِططي، لذا فإنه يعتمد على النظم والتقنيات الحديثة المعاصرة في مجالات البحث والتوثيق والتدقيق وتقديم مُخططات حديثة مُدققة، من مثل: نظم المعلومات الجغرافية (GIS).[16] بيد أن ذلك المُخطط بمستوياته الثلاثة عرف كيف يبني مُنطلقاته على التعريف بطبيعة مُستوياته، فالطويلة معنية بالطرح القيادي المهتم بالغايات العليا، بينما المتوسطة لتربط بين تحقيق أهداف الغايات القيادية العليا والطروحات الدنيا لتتعامل مع منظومة مُجتمعية شعبية تكاد تكون آنية. فالمدائن الغربية بدت انطلاقتها في ستينيات القرن الفائت، لتُنفذ طموحات الغايات العليا في إعادة بناء المدائن الحضرية في فترة لم تتجاوز الثمانينيات، إنما لم تنسى أبدًا تلية الطموحات الآنية؛ باختصاصٍ جديد.

2. 2. فن وعلم بناء المدائن الحضرية

بدأت عِمارة وعُمران المدائن الحضرية مُنطلقة من احترام العلاقة التناقضية بين مواضع النشاطات ممُثلة في قطع الأراضي مهما استقرت عليها المباني المرتفعة أو المنخفضة ومسارات الحركة والانتقال على الأقدام.[17] لينظر المختصين في جانب العناية بتأثيراتِ عمارة وعُمران المعالم التذكارية، من مثل: المعابد والأبنية الدينية والقصور ومنشأت الحكم والخدمات المجتمعية العامة كالمكتبات والحمامات العامة في علاقتها ببعضها وبمسارات الحركة،[18] ذلك مع عدم إغفال العلاقة الضعيفة بينهما وبمواضع نشاطات السكن. لتبقى مسارات الحركة في علاقتها بمواضع النشاطات تُمثل بؤرة الاهتمام لصياغة عِمارة وعُمران المدائن، إنما بان أن ثمة انتظامٌ لبدايات تلك العلاقة عبرَّ اقتراح شبكة تخطيطية مكونة من مسارات الحركة والاتصال في علاقتها بمواضع النشاطات المبنية، لتظهر بدايات مُبكرة لتخطيط شبكي؛ ليتطور ليظهر الشبكي المُرَّكب مُحتفظًا بشبكيته الجامدة، انطلاقًا ليكمل التعقيد في كافة الاتجاهات. لتعود مرّة أخرى لتُصبح معالم المدائن التذكارية مع التخطيط الشبكي مُنطلقًا لأشكال مدائن حضرية أكثر ضخامة ومِقياسًا، إنما تظل العلاقة بين مواضع تلك المعالم التذكارية ومسارات الحركة والانتقال حميمة لتقع تلك المعالم في أركان تقاطعات مسارات الحركة أو على امتداداتها لتلتف حولها، لتأتي من خلفها باقي مواضع النشاطات المُخصصة للسكن. ثم بانت في مرحلة تاريخية لاحقة أهمية المساحات المفتوحة باعتبارا المكون الثاني لمواضع النشاطات أيَّ مع الكتلة النقية المُشيدة، لتظهر في الغرب نمطين إيطاليين هما: ساحة المنتديات والميدان العام، ليُصبح لها مُسمياتها المعروفة مثل الفورام والبيازا، والبلازا، والأجورا.[19][20] لتتخذ عِمارة وعُمران المدائن الحضرية منحىً آخر على أيدي المنظرين، خاصة البريطانيين منهم، منذ القرن التاسع عشر، تحديدًا بعد الثورة الزراعية، ثم بعدها الثورة الصناعية، وما جاءتا به من تمددٍ حضريٍ للمدائن،[14] مع زيادة في عدد السكان وتمدد المناطق العشوائية غيرَّ الرسمية، فبدأ التغيير مُستمدًا من إدخال البعد الاجتماعي في بناء المدائن الحضرية لمراعاة متطلبات الناس، إنما ما زال التوجه التخطيطي مُحتفظًا بمعالجة العلاقة بين عناصر مكونات المدينة: مواضع النشاطات ومعابر الحركة والاتصال. وفي بادرة لا تغفل دور المخطط الحضري كيفن لينش في نظرته للمدينة عبرَّ بُعدًا تصويريًا اهتمامه الوضوح البصري، فلعله أول من أدخل الزمن بعد رابع في تصميم المدائن الحضرية.[21][22][23]

بدا التغيير اللافت نحو عِمارة وعُمران مدائن حضرية لتبدو مختلفة، فكان ذلك احادثًا في نفس التوقيت في الفكرين الأوربي والأمريكي معًا، أيَّ في بدايات العقد السادس من القرن العشرين. حَتَّى تُعد حقبة الستينيات فترة إزدهار الفهم الواعي لمكونات التركيبة الحضرية الجديدة للمدائن:[8][24] ففي نفس الحقبة في أمريكا، جاء آلفن بوباريسكي، وجورج كولنز من جامعة كورنل في العام (1960م)، ليتبعهما في أوربا الآخوين كرير: روبرت وليون، في لوكسمبورغ في العام 1966م،[25] ليتعاملا مع مفهوم جديد منبته التشكيل الفراغي للمدائن الحضرية، ذلك باعتبار أن الذي يُعطي معنىً لعِمارة وعُمران المدائن الحضرية هو التأثير اللافت للعلاقة بين المعالم التذكارية والفراغات/الفضاءات الحضرية المدينية

القريبة منها أو ذات الصلة بها. ليتعدى فن وعلم التصميم الحضري مجرد النوعية المجالية/التطبيقية ذات البعدين مُنطلقًا لمرحلة التشكيلية التشريحية للهيكل الحضري في أبعاده الثلاثة، إنما واضعًا في اعتباره تصويب تفعيل دور الفراغات الحضرية السالبة بدرجة الأهمية التي تلقاها الكتل النقية للمباني الصرحية والسكنية والخدمية، ليتعدى المجالية والتشكيلية، ليهتم بمرحلة الدلالية لِتجربة إنسانية مُتغيرة للوعي بالمكان، ذلك بإدراكه خلال رحلة ذات مضمون نصي وبعد درامي، مُعبرًا عنها بعلاقاتٍ حميمة بين الكتلة النقية والفراغات الحضرية، وبينها ونفسها، ليرصدها في علاقة تراتبية مُتدرج مكونة معنىً للمكان.[26][21][27] كما أنه يُضيف لاهتمامات التخطيط الحضري مساحة لصياغة خطوط إرشادية مُنظمة للعِمارة والعُمران، فاهتمامه معني بصياغة أسس التحكم في الحضرية، وصولًا لطابع حضري مِعماري عُمراني يتسم بالتفرد/التمايز، كما يهب عناية خاصة لأساسيات الوضوح البصري استنادًا للقدرات البشرية، محكومًا بعواملٍ وأسسٍ ومحدداتٍ: الإدراك والسلوك الإنساني والوعي البشري، مُفعلًا لجوانب المشاركة الجماهيرية والفردية في عملية التهيئة: الاستحداث والتشكيل وإعادة البناء. ومن هنا فهو فن علمي مجالات اهتمامه: إعادة بناء/تأهيل المدائن الحضرية ذات القيمة واستحداث وتشكيل المدائن الحضرية الجديدة، بمستويين: متوسط الحجم والمقياس من مراكز المدائن حَتَّى المقياس الكبير المعني بكامل المدائن الحضرية، (الشكل 3).

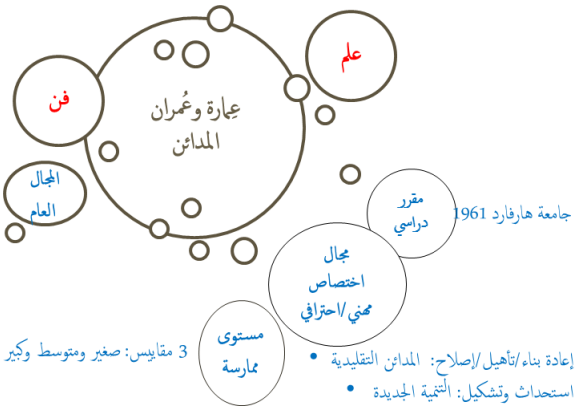

شكل (3). مفهوم عِمارة وعُمران المدن كما ناقشها البحث.

لاح في أفق منتصف القرن الفائت أن ثمة رياحٌ للتغيير على مستوى مكونات عِمارة وعُمارة المدائن الحَضرية– دونما ذكر صريح لمجال التصميم الحضري بعد– فبانت أفكار بدت مُختلفة حول ضبط العلاقة بين الإنسان وموضع البناء على مستوى المجتمعات محدودة الحجم والمقياس، لتتجاوز الحسية (إدراكٌ مرئي) إلى الفكرية (وعيٌ بمعطيات الموضع) منها اثنتين: تلعب واحدة على مبادئ "ازدواجية التركيب: تقنية الحداثة ورمزية الماضي (الحداثة المتأخرة)"، وواحدة أخرى تهتم بالعلاقة السرمدية/الأزلية بين المغلق والمفتوح؛ البناء والفضاء الحضري، لتظهر في كلتاهما تصاميم "عِمارة وعُمران المدائن الحضرية" وكأنها تشكيلًا فراغياً ذا علاقة بين الكتلة النقية والفراغات الحضرية، حَتىَّ أخذت تلك العلاقة أبعادًا فلسفية، مع ثبات موضوعها الفكري.[28] لتبدأ في الظهور نظريات خاصة بعلم التصميم الحضري مُنطلقة من العناية بالفراغات الحضرية باعتبارها العنصر المُهدَّر ضمن عناصر التشكيل الفراغي،[29] ليحافظوا على المدينة من منطلق توظيف عناصرها التقليدية في سياقٍ حضريٍ، من مثل: أ.) السياقية المبنية على فكر الشكلية/مدرسة علم نفس الشكلGestalt،[2][30][31] ب.) الملء الفراغي الحضري: نظرية الطبقات المُضافةCumulative Order [32] ونظرية اللصقCollage،[33] ج.) التشبه الجزئي/القياس[11]. لينتقل التصميم الحضري في سَبعينيات القرن الفائت ليتخذ بعدًا اهتمامه العلاقة بين الناس والحيز المعاش، معنيًا بالجماعات الإنسانية، ليُصبح المصمم الحضري مِعمار الجماعة، ليُشرك المستعمل في التصميم عبرَّ رؤية المدينة باعتبارها أحداث مُتصلة ذات علاقة بالسلوك في ضوء فهم ثقافة المجتمعات،[34] لتظهر نظريات من مثل: أ.) النسقية/لغة الأنساق: عمارة وعمران نسقية،[2][3] ب.) عِمارة وعُمران نصية: دلالاتية/سيميائيةSemiology.[3][35] لينتقل التصميم الحضري في العهد الجديد ليتخذ بعدًا اهتمامه أكبر بالتوافق البيئي،[36] إنما لم تتعد تلك الانطلاقة مرحلة الأفكار: عِمارة وعُمران طبيعية-متوافقة بيئيArcheology[45] والبناء الأخضرGreen Building[46] وعِمارة خضراءGreen Architecture[46] والوداد البيئيEco-Friendly.[47]

3. نحو أدلوجة حضرية لاستدامة مدينة القاهِرة العاصِمة: فكر تفريغ المدائن

مرّت القاهِرة العاصِمة بتحولاتٍ على مستوى تمدداتها الحضرية في مستوى وكتلتها الحضرية المُشيدة في مستوى آخر، واكب تلك التحولات زيادة مُضطرة في الكثافتين السكانية البنائية نتيجة: أ.) زيادة سكانية طبعية عالية، ب.) هجرة داخلية موسعة، ج.) توافد خارجي. لتفيض تلك الكثافات بتغيراتٍ في هيكلها الحضري القائم، ليغير من تركيبة أنسجتها التقليدية بين: مراكزٌ قديمة وحديثة، فنموٌ سرطانيٌ غيرٌ رسمي تعدت نسبته الثمانين بالمائة من مساحة المدينة.[37] إنما كانت تلك الزيادة السكانية والبنائية تسيران بسرعة أعلى من قدرة المدينة الحضرية على احتمالها، فلم تتسبب في مُشكلاتٍ سكنيةٍ بنائيةٍ وحركةٍ وانتقالٍ فحسب إنما تسببت في ارتباكٍ لتكون المدينة غير قابلة للعيش فيها وغير مُفضلة؛[38] لتتخلى الحكومة عن حزمة أفكار تردد أنها ليست مُناسبة لعاصِمة مِصر، فلم تجد لها مكانًا، منها: أ.) فكر الإزالة القهرية: للمناطق غيرّ الرسمية، لكونها تُمثل أكبر مُشكلات العاصِمة، ب.) فكر التمكين: الداعي لمصالحة من استولى على أراضي الدولة ليقيم مستوطنة غيرَّ رسمية، ج.) فكر الإخلاء الإداري: الناصح بنقل المؤسسات والهيئات لتكن طاردة لمرتاديها جاذبة للزائرين بمدائنٍ أخرى، د.) فكر إعادة التأهيل الجزئي/التلقيطي: بإعادة توزيعات استعمالات الأراضي وشق أنفاق سفلية وبناء كباريٍ والتوسع في مشروعات تصميم الميادين والطرق، هـ.) فكر المخطط الشامل بعيد المدى.

3. 1. نقد فكر المخطط الشامل بعيد المدى: رؤى واستروجة حضرية

فمشكلة المدائن المِصرية وتأتي في مقدمتها القاهِرة العاصِمة أنها باتت تحمل أضعاف ما خُططت له، من حيث: كثافة البناء المُشيد والفراغات البينية الحضرية والمناطق المفتوحة في جانب وأطوال وعروض طرقات المرور الآلي في جانبٍ آخر: مواضع النشاطات ومعابر الحركة والاتصال كعنصري التشكيل الفراغي لأيَّ مستقرة حضرية. فحينما اعتمد تخطيط المدن للتخلص من مشكلاته بقصد إعادة توزيع السكان على أفكارٍ، مثلِ: أ.) اللامركزية، ب.) الجذب الخارجي والهجرة المُضادة، ج.) الإزالة وإعادة التوطين، د.) نقل النشاطات ذات الكثافات العالية خارج المدينة، هـ.) حزمة القوانين التي اتُخذت لحل مُشكلات الحركة وتسكين المواطنين الفقراء وتلبية الخدمات المجتمعية العامة التي صادفت نجاحًا بيد أنها لم تعد تكفي. لتتبين مؤشرات ذلك في زيادة حالة الفوضى التي عَمَّت؛ فحَتَّى الآن لم تُحقق تلك الأفكار نتائج مرضية ذات قيمة تحديدًا. فكافة معالجات السيطرة على الحاصل من فوضى سكانية ووظيفية ومرورية، بل وحَتَّى بصرية، لم ترتكز على قاعدة تخُص الناس، إنما كانت في مُعظمها تخص القوانين والنظم والتشريعات الصارمة، التي عادة ما تواجه برفضٍ باتٍ من المواطن العادي، لأنها لا تلبي طموحاته بقدر ما تُحبط آماله. فلا يزال فكر المُخطِط المِصري يُشير إلى أن الحل كامن في القوانين والنظم، مع الاتجاه نحو وضع خطط مستقبلية عُمرانية مِعمارية بعيدة المدى، الأمر الذي لم يعد مَطروحًا في مجال إعادة بناء المدائن في العالم المتمدن.

فمن أهم أسباب عدم الاقتناع بهذا الفكر طويل المدى: أ.) أن التقدم التقني المضطرد لا يُمكن معه وضع تنبؤات إلاَّ قصيرة أو متوسطة المدى، ب.) لم تعد المدينة مُخطط أرضي ثنائي الأبعاد، يتبع تخطيطًا شجريًا هيكليًا، همه توزيع الاستعمالات وحل مُشكلات البنية الأساسية، بل أن المدينة كائن حي ينمو وفق أفكار قاطنيه وزائريه، ج.) المدينة جزء من الكُلِّ، فأيِّ محاولة لحل مُشكلات منفردة دون النظر للمحيط الحيوي كُله ستواجه محاولاتها دائمًا بالفشل، د.) المخطط الشامل للجمهورية –واضعًا في اعتباره الأهمية النسبية لكُلِّ مدينة– يجب ألاَّ يغفل أن فرص التنمية البشرية يجب أن تكون متساوية، ثم تُحسب القيمة المُضافة لأيِّ مدينة لتتفوق على مدينة أخرى بحيث تعد فرص للرفاهة، يُمكن الحصول عليها بقيمة أعلى. إذ فهو فكر يرى المدائن الحضرية الكبرى باعتبارها فُرصًا استثمارية ليست خدمية في حين يرى بقية المدائن والبلدات الحضرية باعتبارها مأوى وموطن حياة، يتمتع فيه المواطن بكافة أوجه المعيشة المُرضية له.

فلعله من الملائم الآن التعريف بأهم خطوات إعداد وتنفيذ المخططات الشاملة والتفصيلية في دورة زمنية متوافقة: أ.) إعداد قاعدة بيانات مرحلية، متطورة ومتغيرة بالاستعانة بخرائط التصوير الجوي الرقمي والدراسات الإحصائية الوثائقية، ب.) تكوين فريق عمل قيادي في مستويات التخطيط العليا منوط بطرح أفكار تنمية مستقبلية مُستدامة على كامل مساحة الأرض المِصرية، ج.) تحديد محاور ومراكز ونطاقات الامتدادات الحضرية والريفية، واضعين في الحسبان أكثرها ثراءً في موارده المائية وطاقاته غيرَّ المتجددة والمتجددة والبشرية، مع التركيز على إبانة مواضع محاور ونطاقات التنمية التي يُمكنها سحب العُمران البشري خارج النطاقات المأهولة؛ بتوفير فرص سكن وعمل وتعليم وعلاج وترويح، د.) تفريغ المدائن بوضع تصور لكافة النشاطات الجاذبة ووضع مثلها داخل المدائن الحضرية الأخرى، ثم البدء في إجراء عملية التوزيع المتوازن لها في كافة نطاقات التنمية المُحددة قواعدها من قبل، هـ.) إعداد المخططات التفصيلية لتوزيع الاستعمالات والكثافات داخليًا والربط بين مُخرجات كلا المخططين: الشامل والتفصيلي، مع العناية بأن المخطط الشامل يتضمن مُخططات هيكلية: أقاليم ومحافظات ومدائن حضرية، و.) انتقالًا للاستعانة بأفكار التصميم الحضري لجعل المدن أكثر استدامة وقابلة للعيش، ز.) مراجعة لمدى توافق المخططات التفصيلية مع المخططات الشاملة، لتكن أهم نقاط عِمارة وعُمران مدائن مُستدامة، قابلة للعيش فيها، فتلك يُمكن أن تبدأ نقطة انطلاقتها من تكوين قاعدة معلوماتية موثقة لكافة إمكانات وموارد الدولة، ثم التوصيف من الخارج للداخل، من النطاقات التي فيها مراكز ومحاور ونطاقات التنمية والقواعد الاقتصادية والمجتمعية الجديدة، أما في الداخل فخرائط المخطط الشامل معنية بتفريغ المدائن الحضرية من كافة النشاطات الجاذبة لجعلها غيرَّ منوطة غيرَّ بتلبية مُتطلبات القاطنين، أيّ غيرَّ الوافدين إليها للعمل والسكن والتعليم والعلاج.

أما مسألة الخروج فلن تتم فقط بترسيم خرائط استعمالات الأراضي وتحديد محاورًا للتنمية وتشكيل أحيزة المدائن الحضرية والقرى والعزب المحيطة، إنما الحل الأوفق سيكون بتحقيق المساواة في نقاط الجذب والمتعة والرفاهة والعوائد المجتمعية وأهمها الاقتصادية التي يحصل عليها الوافد إلى المدائن الحضرية أو العاصمة تحديدًا. ومن ثم فالمخطط الشامل عليه أن يضع في اعتباره أن تتماثل نقاط الجذب ومحاور التنمية مع المميزات التي تهبها المدائن الكبرى لقاطنيها.

3. 2. فكر تفريغ مدينة القاهِرة من معاناتها

يستهدف الناس المدينة التي تلبي لهم مُتطلباتهم واحتياجاتهم. عُرَفٌ اتفق عليه أهل مدن دول الشمال والجنوب، فتجذب المدينة الناس ليس لأنها عاصمة فحسب إنما بما فيها من عناصر جذب، ليس فقط لسد الضرورة إنما للوفرة والتعليم والعلاج الراقي وأحيانًا المُتاح والضروري، الترويح والرفاهة والمتعة والاستقرار، إنما يزيد عنصر الجذب إذا كانت تقدمه بمقابلٍ ماديٍ ومعنويٍ مُنخفض. إذن إن عُكست المعادلة، أو لنقل إذا تم الانتباه إلى أن القادمين للعاصمة يتركون عصبيتهم في المدينة الأم لأنهم لا يجدون في مواطنهم ما يُماثله فيها، ثم يجلبونهم بعد الاستقرار مُضيفين للمدينة هم غيرَّ ما فيها من هموم قاطنيها. إذن فقبل وضع مخطط شامل لمدينة القاهرة، يجدر التفكير في منحى معني

بالتفريغ المرغوب– "أن أترك ما أنا فيه برغبتي"، غيرَّ فكري الإزالة والتأهيل– ليتضمن فكر إعداد المخطط الشامل مرحلتين.

3. 2. 1. الخطط الفكرية الحضرية

كشفت المُشاهدات الميدانية والإحصاءات الرسمية والاستبيانات الدورية أن الغالبية العُظمى من القادمين إلى القاهِرة للعمل والعلاج والتعليم يُقيمون بعيدًا عن ذويهم، أو أنهم يقطعون مسافات رحلات يومية مرهقة في سبيل تلبية الخدمات المجتمعية لهم، إنما في حال توفير احتياجاتهم حيث يقيمون، فإنهم سيفضلون البقاء هناك. إذن فالفكر الخططي في البحث عن كيفية تفريغ المدائن من كربها، يُمكن أن يُمارس في ضوء (الشكل 4):

شكل (4). المحاور الأربعة لفكر التفريغ.

أ.) **فكر الحنين بديلًا عن الاغتراب:** الذي من أولوياته أن تلبي المدائن الحضرية والبلدات الصغرى احتياجات مواطنيها بنفس القدر– إن لم يكن بقدر أكبر مما تلبيه العاصمة– فسيفضل الأغلب الأعم من الزائرين البقاء في موطنهم الأصلي، ليخففوا من عبء اغترابهم الدائم، أو من مشقة الرحلات اليومية لمدينة بات العيش فيها يحتاج لمعاناة مادية ومعنوية كبيرة، ب.) **الترك برضا بديلًا عن الاستبعاد:** الأغلب الأعم ممن لهم جذور ليست قاهرية يفضلون مغادرة المدينة ما دامت لا تلبي لهم احتياجاتهم، ما داموا سيجدوا المقابل في مواطن أخرى تلبي لهم أكثر مما تقدمه العاصمة بمقابل مادي ومعنوي أقل. من هنا فعلى واضع المخطط الفكري أن يبدأ تفكيره مُنطلقًا من إقامة مواطن لسكنى المستقرات غيرَّ الرسمية التي تحيط القاهِرة الكبرى والعاصمة، بل وبالمدائن الحضرية المِصرية الكبرى، لتُشكل نقاط جذب حضري ومعنوي لمن ليس لهم وطن يحنون إليه، فيشكل لهم المستقر الجديد، ما يلبي لهم أضعاف ما تلبيه لهم العاصمة، فيتركون العاصمة برغبتهم الكاملة، ج.) **فكر المُعاناة بعيدًا عن الرفاهة:** فإن كان القادم زائرًا للعمل والعلاج والتعليم، أو أنه من المقيمين بطريقةٍ غيرَّ شرعية، سيُقابل بمعاناة مالية ومعنوية كبيرة، فإنه سيفضل الترك والمُغادرة إلى أمكنة أخرى العناء فيها أقل والمقابل أكبر. المعنى أنه إن كان مستوى السكن والعلاج والتعليم والترويح في كافة أرجاء المعمور المِصري سوف يقدم بنفس درجة الامتياز، بالإضافة إلى أن كافة تلك الفرص ستضاعف المقابل المادي للحصول عليها في العاصمة، فإنه من سيرغب في الاتجاه نحو العاصمة أو إلى المدائن الحضرية الكبرى؟ د.) **فكر القص بديلًا عن اللصق:** نمت المدائن الحضرية التقليدية، في العالم كُله، كما نمت مدينة القاهِرة قبلها وفق فكر الطبقات المُضافة، إنما حينما اتبع الغرب منطق فكري واضح في الإضافة وملء الفراغات حادت القاهرة؛ فامتلئت وتمددت دونما أيّ فكر واضح. فمن البديهي البدء من حيث تبينت مُشكلات الملء واعتماد فكر القص لفترة لا تقل عن خمسة أعوام، فمن الضروري اتخاذ قرار بعدم البناء في القاهِرة لمدة لا تقل عن خمسة أعوام وتعويض أصحاب الأراضي بمقابل مادي، أو بمقابل موازٍ في منطقة أخرى (أفكار الحنين والترك وزيادة المعاناة).

3. 2. 2. العمليات الفكرية الحضرية

تبدأ مرحلة العمليات الفكرية للملء في توازٍ مع مرحلة الخطط الفكرية، بقصد الوصول لرسومٍ احترافيةٍ مهنيةٍ توازن بين المرحلتين في ضوء الغاية الرئيسة والرؤى وحساب النتائج والتوقعات، (الشكل 5). إنما تلك المرحلة يجب أن يكون لها مدى زمني قصير ومتوسط وطويل المدى، لتتبين على مستوى هيكلي يضع اهتمامه في صورة المدينة (التفرد/التمايز) وجماليات المدائن الحضرية، وثانيهما تفصيلي اهتمامه بالوعي الفراغي وتجارب البشر في الحضر والذي تدور حوله الدراسة التجريبية، المتضمن أفكارًا، مثل ، أ.) التشكيلية (Morphology) بديلًا عن التنمطية النوعية (Typology)، ب.) فكر التصميم البيئي المُستدام الذكي بديلًا عن الحلول الهندسية التقليدية، ج.) فكر المدينة الذكية بديلًا عن المدينة التقليدية.

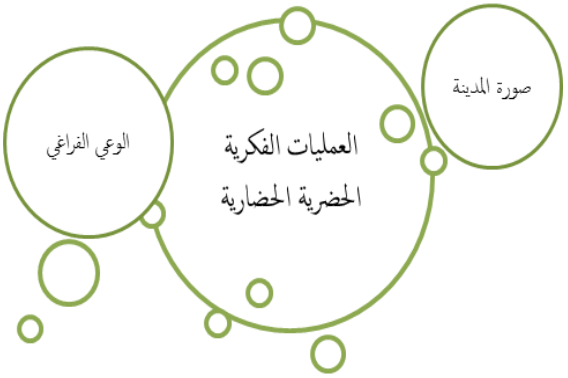

شكل (5). المحورين الأسايين للعمليات الفكرية الحضرية المستند إليها البحث، [المصدر: الباحثة]

4. من مدرسة السلطان حسن حَتَّى قصر الأمير طاز

تعاني مدينة القاهِرة من فوضى حضارية التفت حول عِمارة وعُمران أرجائها القديمة منذ فجر التاريخ والتقليدية في زمن الخلافة الإسلامية بعد منتصف القرن العشرين لحَتَّى اليوم، إنما تظل المناطق التقليدية تحمل وعيًا إنسانيًا مُختلفًا لِتخفُت حدة الفوضى في تلك المناطق عنها في المناطق القديمة والمعاصرة. فالزائر للفراغ البيني الضخم بين مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي، أو المتجول في أروقة قصر الأمير المملوكي سيف الدين طاز يستشعر أن المِعمار يومها امتلك وعيًا إنسانيًا مشاعريًا خاصًا أدرك من خلاله قيمة البناء والناس، في حين أن الطائِفين فيما بين وحول تلك المعالم التذكارية يُدرك أن مِعمار مُنتصف الألفية الثانية لحَتَّى اليوم افتقد هذا الوعي الفراغي؛ الذي لعله يُمكن أن يكون اتجاهًا لبناء أنوية حضارية حضرية لعاصمة قابلة للعيش فيها. يُلَمِّح هذا الفاصل لماهية مُصطلحين ومفهومين: أ.) فوضى حضارية حضرية، ب.) تجربة وعي/فراغي: علاقة مُرَكَّبة، لتأخذهما مُنطلقًا للإجابة على: أ.) أسباب نجاح المِعمار القديم لألف عام في الوصول لعِمارة وعُمران مُستدام، مُحققًا تجربة وعي فراغي فريدة لمرتاديه، في حين فشل المِعمار المُعاصر –برغم تراكماته للطبقات البنائية المُضافة لنسيج المدينة في العصر الحالي– في بعث تجربة فراغية وعيية ملائمة، ب.) أسباب عدم الالتزام باتباع أفكار ونظريات وطرائق منهجية كما فعل مِعمارو الماضي عالميًا، في الوقت الذي تجاهل فيه المِعمار المصري ذلك، ج.) الكيفية التي تجعل القاهِرة مدينة قابلة للعيش فيها؛ من منظور بعث تجربة الوعي الإنساني/الفراغي.

4-1 فوضى حضرية حضارية في مدينة القاهرة *مُصطلحٌ ومَفهوم

تظهر مدينة القاهرة مُنذ مُنتصف الألفية الثانية الفائتة في سياقٍ غيرَّ مفهومٍ أو مُبررٍ، لينشأ مفهومٌ حضاريٌ حضريٌ مُختلفٌ عم بدأ به بناء العاصمة. لعله مفهومٌ كامنٌ في كونهِ تعبيرًا مُضادًا في الاتجاه المعاكس لمُصطلح "إدامة حضرية Urban Sustainability" حيث فقدت معه المدينة قدرتها على العمل بكفاءة، أيٍّ لِتُصبح غيرَّ مُحققة للغرض الذي أنشئت من أجله، لتظل حضارية حضرية إنما غيرَّ قابلة للعيش فيها؛ تحمل سمات الحضارة والحضر، إنما دونما تزاوجٍ حميمٍ بين مُتناقضاتها؛ أيّ نقصد: أ.) الإطار الفكري الحضاري الحضري للمجتمع بما يتضمنه من تأثيرات للمفاهيم والأفكار السائدة والقوانين الحاكمة، المساهمة في تشكيل المنتجات البنائية وتطورها عبرَّ العصور، ب.) الظروف التي واكبت التطور الحضاري بما يحمله من فروضٍ وآلياتٍ تتزامن مع التقدم العلمي والتقني وباتت تأثيراتها واضحة على البناء القائم والجديد، لتفقد المدينة حيويتها الحضرية، العاكسة لمفهوم مرونة العِمارة والعُمران الحضاري الحضري للمدائن العربية التقليدية المعاصرة.

الحيوية الحضرية Urban Vitality المُساهمة في تشكيل سمات المدائن ذات الفعالية، المستمدة ركائزها من القيم الفاعلة لصياغة النتاج البنائي المِعماري العُمراني في تكوينه النهائي، ليدكها الوافد والمقيم منقولة له عبرَّ النتاج البنائي وتشكيله الفراغي من خلال رحلة يومية– أو موسمية– لتجربةٍ مُتجددة. فتهتم أي تجربة مدينية حضارية حضرية بما تتيحه دلالات العلاقة بين عناصر المدينة عبرَّ الوقائع البصرية والدلالات الكامنة: أ.) عِمارة وعُمران الكتلة والفراغات الحضرية، ب.) طرق السيارات ومسارات حركة المشاة، وكليهما له أهداف دلالية تكتسب معناها في سياق علاقتها المجالية الودودة بين المبني والمفتوح، والتشكلية بين الكتلة النقية والفراغ الحضري. ففي كُلِّ مرَّة تتغير فيها المجالية تتجدد التجربة الحضرية، وتعطي ملامح أخرى للسياق البنائي.

أما المصمم الحضري فهو صانع تلك التجربة ومحيي أمالها، ليكمن دوره الرئيس في توظيف الدلالات التي تحققها تلك العلاقات ضمن سياق التجربة الحضرية، لتتكون في كُلِّ مرَّة تجربة وعي فراغي– إنساني فريدة؛ كأن يقصد المصمم في واحدة الإيحاء بتجربة آتية من عصر مصري تقليدي قديم، أو من مزيجٍ من العصور التاريخية المتراكمة؛ عبرَّ خط سير محدد، لحَتىَّ أنه في نهاية الترحال تستمد المدينة أفضليتها عبرَّ توسم تلك التجارب وتعددها. أما الوعي الإنساني–الفراغي عبرَّ تجربة سير بيئي مُتجددة فمُكونٌ دافع لتحقيق التشكيل الفراغي الحضري؛ عنايته بالمسائل المجتمعية الثقافية التي تهتم بفكر الإنسان. ليختلف الوعي الفراغي عن الإدراك الحسي، ليتجاوز إدراك حقيقة الشئ الذي أوله الحس وثانيه التصورات، ليأتي الإدراك يتبعه الفهم، فالتصرف أو السلوك أو ردة الفعل. أما الحاكم لردة الفعل فمقدار الوعي؛ أيّ وهو ما يشير إلى تعدي سلطة الحواس في التأثير على خصوصية فهم الإنسان، ليتحول الإدراك في العِمارة والعُمران نحو الفهم بمعنى التصرف تجاه هذا الشيء.

4-2 ذروة العلاقة المُرَكَّبة: تجربة الوعي الإنساني الفراغي: اتجاه نحو عاصمة قابلة للعيش فيها

في مُنتصف الألفية الفائتة بانت حركة مُضادة للتجديد الحضري، فلم تعد فكرة الإزالة الكاملة محل ترحيب، بل بات التعامل مع المناطق ذات القيمة عبرَّ إعادة البناء والتأهيل بوضع الموجودات ذات القيمة في سياقٍ حضاريٍ حضري يتوافق مع التجربة الوعيية/الإنسانية للمدينة. لتظهر بعدها تفعيلات لأفكار مثل السياقية والطبقات المُضافة والدلالاتية والتأويلية والنسقية، ليتفق مع ما بُني في القرن التاسع عشر من نظرياتٍ. فمن يرى أن الأمر لم يكن مُدبرًا في الغرب لتحقيق تكوين

* لعله من اللائق التأكيد أن عنونة هذا المبحث "فوضى حضارية حضرية" ليس بمُصطلحٍ أو مفهوم يستهدف الباحثان صكه في مستهل الألفية الثالثة، حيث يختلف مفهوم الحضارية عن الحضرية، إنما الحضارة هي الثقافة- "المدنية، تابعة لروح الثقافة، عاكسة لفعلها في مجتمعٍ محدد. "... بينما التحضر ليس تبعية مظهرية ولا تشكيلية ولا حَتَّى خدمية، إنما تتكون الحضرية وفق اتفاقات مجتمعية باطنية غيرَّ مكتوبة، وبمعتقداتٍ فكريةٍ ثقافيةٍ حتميةٍ تراكمية وحواراتٍ سلوكيةٍ مُتفقٌ عليها منذ أمدٍ بعيد، كما أن تلك الاتفاقات والمعتقدات والحوارات لها ما يوازيها في الريف، إنما لا يتطابق معها"[42]، إنما الحاصل اليوم، في الأغلب الأعم من المدائن الحضرية المِصرية وتأتي في مقدمتها مدينة القاهِرة العاصِمة، بما تحمله من زخمٍ بنائي تراثي حضاري أصابه الخبل من كثرة التقنيات التي أحاطت به في غيرِّ سياقٍ أو محتوى، ما دعانا إلى استعمال مُفردة "فوضى".

فراغي واعي وتجربة إنسانية مدينية حيوية عليه مراجعة بعض أهم ما كان يراعيه المخطط والمصمم عند بناء هيكل المدينة العربية التقليدية. حيث سبق نظرية الطبقات المُضافة كولاج في أوربا وأمريكا ابتكار لأفكارٍ تكاد تكون مُشابهة عن التعقيد والتركيب في البناء على فتراتٍ زمنيةٍ مُتباعدة، فبانت في المدينة التقليدية: أ.) حرفية الطبقات المُضافة والتراكم البنائي المُلتزم بمحيطه الحيوي، ب.) تكامل العناصر الوظيفية المتوافقة، ج.) فرض عناصر جذب وظيفية بصرية مثل: العلامات الدالة كالمآذن وأنوية التجمع كالساحات، د.) المحاور الوظيفية البصرية المستقيمة والمنكسرة لتحقيق الإثارة والمفاجأة والجذب:[14][42] أ.) "روعي تكوين ساحات صغيرة عند انحناء الشوارع وخاصة أمام مداخل المباني الدينية حيث يتجمع عدد كبير من الناس أثناء الدخول والخروج وقت الصلاة. وقد لوحظ احترام المباني لخطوط التنظيم المحددة للشوارع؛ لهذا نرى أن حد الحائط الخارجي يسير بخطوطٍ مُنكسرة بينما الحد الآخر داخل المبنى عبارة عن خط مستقيم، ب.) روعي في تنظيم الفراغات بين المباني أن تكون هذه الفراغات عُنصرَ جذبٍ بحيث يظهر انتماء هذا المباني لبعضها؛ فقد شكل مبنى المدرسة ومبنى المدفن والسبيل والكُتاب أعلاه بحيث احتضن المبنيان ساحة مسطحها مع مسطح وارتفاع المباني المذكورة بحيث تم ربط فراغي بينهما. كما روعي في وضع السلالم أمام المباني اتجاه الحركة، ج.) أما مجموعة قلاوون ومدرسة قلاوون ومدرسة برقوق فمثالًا أخر لمبانٍ متجاورةٍ بُنيت في فتراتٍ مُتباعدةٍ لتُعطي فكرة علاقة المبني بالنسبة للشارع وتسلسل تكوين الفراغات أمامها جميعًا. كما أن تراكم الطبقات المُضافة Cumulative Order بان في القاهِرة التقليدية بنشأتها بالتراكمات الزمنية؛ حيث بنيت القاهرة متأثرة بالمدن الرومانية المعتمدة علي التخطيط الشبكي مع ظهور المباني الهامة في التقاطعات المحورية، ثم بالتراكمات الزمنية ليتَحْول النسيج من البلوكات المتعامدة Orthogonal Blocks إلى البلوكات العضوية الملتفة Twisted Blocks، والذي انعكس أيضًا علي التتابع الواضح والقوي بين الفراغات من العام إلى الخاص.[32, p. 197]

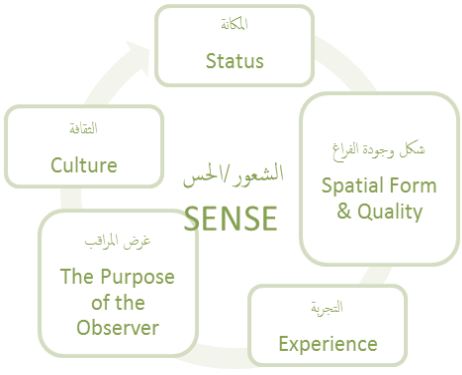

شكل (6). الشعور هو مكون أساسي للارتياح النفسي للذين يعيشون في أمكنة مفضلة، وسبب للتنافس العاطفي بين الناس؛ تحكمه: المكانة، شكل وجودة الفراغ، الثقافة، التجربة، غرض المراقب، [المصدر: الباحثة]

4. 3. استكشاف حقيقة تجربة الوعي الفراغي/الإنساني في المدينة المصرية التقليدية حالة حي الخليفة

يتراكم في تلك المنطقة التراث الحضاري الحضري عبرَ عصور تاريخية تجاوزت الألف وثلاثمائة عام، كما أنها بُنيت في فصولٍ تاريخية لولاة قادمون من بلدانٍ مُختلفة ليحكموا مِصر. فواقع الحال يُشير إلى أنها كان من الأولى أن تأتي في سياقٍ غيرَ ما هي عليه؛ إنما في الحقيقة، منذ انتهاء عصر الولاة، بدأ التراكم يأخذ أشكالًا مُختلفة، كُلها– في الغالب–خارج السياق الحضري الحضاري. أما الموضوع الرئيس فهو عن مدى التباين بين ما فعله القدماء عبرَ ما يزيد عن ألف سنة ليتبعوا سياقًا فراغيًا واعيًا معتمدًا علي عناصر التحكم في الشعور (الشكل6)، ليأتي المجددون ليخرجوا عن السياق، ويعيدوا كتابة نص هزيل غيرَ مفهوم بِكُلِّ المقاييس.

4. 3. 1. من جامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن† حَتَّى قصر الأمير طاز

الحاصل اليوم لمن يقوم برحلة في حي الخليفة مُنطلقًا عبرَ الفراغ البيني بين جامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن راصدًا في البعيد جامع محمد علي، ثم مارًا بشارع الصليبة حَتَّى شارع السيوفية حيث قصر الأمير طاز لا يستشعر أيَّ تجربة وعي فراغي. فعلى الرغم من وجود زخمٍ تراثيٍ بنائيٍ إسلامي، فإنه يستشعر فقدانه القدرة على تكوين تجربة فراغية/إنسانية، لعله لأنه اليوم في الألفية الثالثة. لتبدأ رحلة العائد من زيارة جامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن مُنطلقًا من الفراغ البيني، لافتًا انتباهه مسجد محمد علي بالقلعة الذي يبدو وكأنه قد تم تصميم ثلاثتهما في نفس الفترة الزمنية، إلاَّ أن ثمة فرق بين جامع الرفاعي ومدرسة السلطان حسن–التي بُنيت قبله حوالي ما يناهز الخمسمائة عام، في حين بُني جامع محمد علي في نفس زمن جامع الرفاعي إنما قبله بحوالي تسعة وثلاثون عامًا.[39] ليتبين أن ثمة علاقة بصرية بين مدرسة السلطان حسن وجامع محمد علي في القلعة، في حين تتبين علاقة أخرى هندسية –أيّ عبرَ مستوى التريب والتنظيم الفراغي– بين مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي، ليصنع الفراغ بينهما نواة تجمع، ومحورًا بصريًا غيرَ مُستقيم في بداياته متجهًا نحو جامع محمد علي.

أما المتابع للرحلة مُنطلقًا من الميدان صلاح الدين سيمرّ على النحو الآتي: أ.) قسم الخليفة مبنى تراثي أثري أعيد توظيفه، ب.) مسجدي شيخون، ج.) سبيل قيتباي ثم مسجد قانباي الرماح، مُنطلقين منها وصولًا حَتَّى: د.) سبيل أم عباس، لينعطف قبله يمينًا في شارع السيوفية نحو قصر الأمير طاز، فلن يتبين عبرَ الرحلة بكاملها: أ.) إلاَّ البناءات السكنية والصروح التذكارية على مسارات حركة كانت مُخصصة للمشاة

† بُنيت مدرسة السلطان حسن فيما بين (1357-1362م)، في عهد دولة المماليك البحرية، القادمون من تركيا، عاشوا عبيدًا في عصر الدولة الأيوبية وبسقوطها سادوا وحكموا، في حين شيد قصر الأمير سيف الدين طاز بن قطغاج قبل بناء المدرسة بحوالي سبعة أعوام، في العام (1350م)، وبُني جامع الرفاعي بعدهما بخمسمائة عام فيما بين (1869-1911م) في عهد أسرة محمد علي. [39] [26]

وتحولت طرق لعبور السيارات، مع شغل جانبي الطريق لمواقف السيارات، ب.) اختفاء نقاط التجمع مع عدم وجود أيَّ تتابع منطقي لمواضع النشاطات، لتأتي الملاحظة الثالثة في تباين الواجهات الخارجية لحد يختفي معه الطابع والهوية تمامًا.

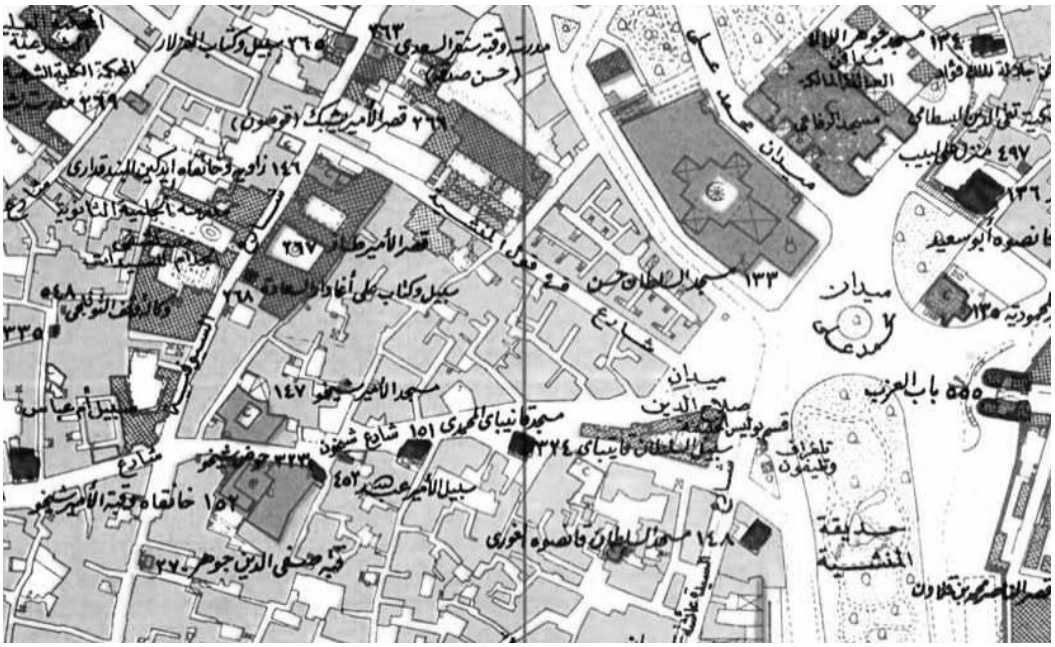

شكل (7). خريطة مساحية لميدان صلاح الدين (ميدان محمد علي) يظهر بها العديد من المباني التراثية، (المصدر: هيئة الآثار المصرية)

4. 3. 2. مقترح تجربة رحلة الوعي الفراغي

إذا ما فُرض أن تجربة الوعي الفراغي في النطاق محل الدراسة تعتمد على توجهين: أ.) فكر تابع لمسار حركة عند (مسار آل البيت) والتتابع الزمني لولاة الخلافة الإسلامية، ب.) فكر ترسيخ الحياة اليومية المُستمرة بكُلِّ مُتناقضاتها واختلافاتها عما كان في الماضي، ليبدو أنه ثمة نسقين: أحدهما ثقافي– ديني، وثانيهما مُتعلق بأنساق الاستدامة؛ المعنية بفكر مجتمعي حياتي وظيفي ترفيهي ثقافي. ومن هنا فإنه من الضرورة بمكان أن تتكون رحلتين للمعرفة، تنطلق ذهابًا وعودة عبرَّ أنساق الاستدامة المقترحة– (الشكل8).

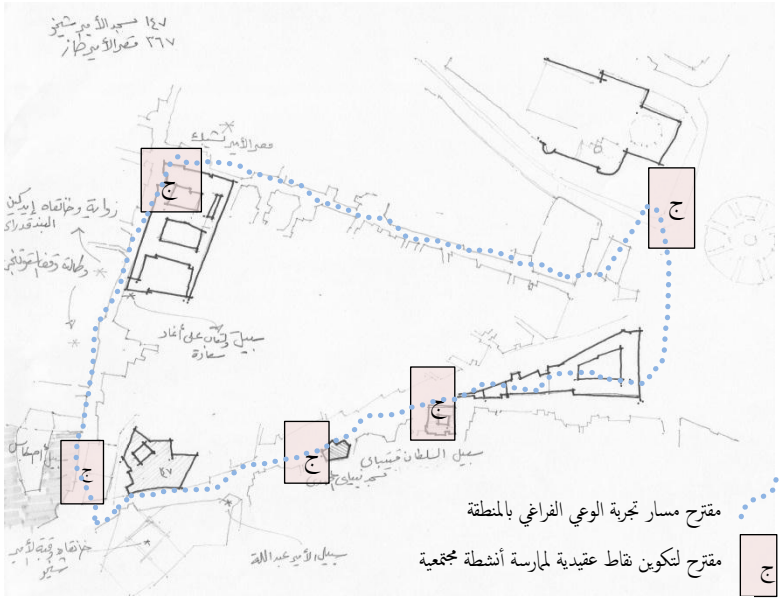

أ.) خريطة توضح مقترح مسار تجربة الوعي الفراغي

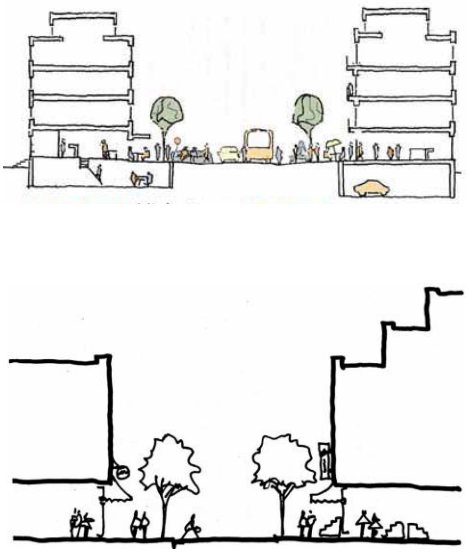

ب) عروض الفراغات لممارسة الأنشطة الحضرية

ج. المنطقة أمام قصر الأمير ظاز من خلال تصميم نص درامي يتلائم مع فكر التصميم

د. أنشطة مدينية في الساحات تساهم في جعل المدينة قابلة للعبش ومفضلة

شكل (8). مقترح تجربة الوعي الفراغي على مسار الرحلة، فالمنظومة الفكرية لتفريغ النطاق المديني الأثري: أ.) توفير الخدمات المجتمعية العامة في المدائن المِصرية بما يُماثله في القاهِرة العاصِمة، مع تقديمها بقيمة اقتصادية أقل مما تقدمه العاصمة، ب.) تفريغ المناطق المدينية الحضرية من البشر والحجر عبرً ترغيبهم في الترك برضا، ج.) و د.) خلق تجارب وعي إنساني– فراغي في سياقية ثقافية وترفيهية لجعل المكان قابلًا للعيش فيه، ثم مُفضلًا لما فيه من نص درامي يتلائم مع فكر التصميم– تجربة الوعي الإنساني– الفراغي.[من إعداد الباحثة]

5. خلاصات ومُكتسبات ودروس مُستفادة وتوصية وخاتمة ونهاية حتمية لبداية منطقية

تحتاج القاهِرة إلى وضع خطة زمنية عاجلة لتفعيل فكر المُخَطط الحضري الشامل متوسط وقصير المدى باعتباره عصب فكر الاستدامة، مع الالتفات إلى تفعيل دور المصمم الحضري؛ الذي يرى المدينة باعتبارها كيان إنساني/بنائي غير مُنفصل عن مُحيطه الأرحب: أ.) فالمُخطط الشامل والتصميم الحضري غايتين مُتصلتين على الرغم من اختلاف مستويات المعالجة والتناول: فأولهما خططي يُمثل قاطرة التنمية الشاملة، وثانيهما عملياتي يمثل القاطرة الثقافية البشرية، إنما كليهما معًا يمثلان الدعامة الرئيسة لقدرة استدامة المدائن الحضرية (أيً لخلق مدائن قابلة للعيش فيها ومُفضلة)، كما أن كليهما يُدَعِّم التوجه البيئي والتقني.

فباتت الدعوة مُلحة لتفعيل الدور الغائب للمخطط الشامل في أبعاده الزمنية متوسطة وقصيرة المدى، في حين بات لازم تفعيل دور المصمم الحضري: مِعمار الجماعة في المستويات التفصيلية الدنيا، فالمدائن الحضرية –وتأتي في مقدمتها القاهِرة العاصِمة– في حاجة للاستفادة من دروس الغرب في مجال فن علمي اسمه التصميم الحضري. ب.) جدير بأن تعيد الحلول المُستقبلية نحو مدائنٍ حضاريةٍ حضريةٍ قابلةٍ للعيش فيها ومُفضلة النظر في المدى الزمني لمراحل تنمية المدائن الثلاث: قصيرة المدى؛ تلك الآنية التي يشعر فيها المواطن اليوم وليس غدًا أن مدينته قادرة على تلبية مُتطلباته واحتياجاته؛ حالًا بدون تأجيل؛ فتلك هي الأهم، ثم مرحلة متوسطة المدى، تحقق أحلام الجيل القادم في حياة كريمة لأبنائه ولعلها تُقدر بفترة تزيد عن عشرة أعوام، أما التفكير في مدى زمني بعيد، أيً مخطط شامل للمدينة بعد عقودٍ طويلة، فذلك لم يعد محل تقدير علمي، أو من أيً جهةِ تخطيطٍ مجتمعية. فلم تعد أحوال الدنيا كما كانت من قبل تَمُر بطيئة، بل بات التقدم الحضاري التقني مُتسارع بقدرٍ لايُمكن من معرفة ما تقدمه التقنية من خدماتِ مدينيةٍ لأقل من عشرة أعوام قادمة.

أما فكر الإزالة القائم على الاستبعاد فلا يُمكن تطبيقه في الوقت الحاضر؛ كما أن فكر تمكين الناس من أراضي الدولة المستولى عليها فنشأت المستقرات غيرً الرسمية بتمديداتِ بنيةٍ أساسيةٍ –إنما بحالة متردية في عِمارتها وعُمرانها– فلا يُمكن القبول به داخل العاصِمة؛ كما أن نقل تلك الأنشطة يعد نقل للمشكلة من مدينة لمدينة أخرى. لذا يطرح هذا العمل دعوة لمراجعة فكر تقليص فترات الرؤى لتحصرها في آنية ومتوسطة المدى على مستوى العمليات ليظل الفكر بعيد المدى مُهتمًا بالغايات والرؤى، ثم التعامل بفكر التفريغ بأسلوب لايعني إزالة البناء إنما الانطلاق لأمكنة أكثر جودة وفاعلية للنازحين من هنا إلى الخارج (الهجرة العكسية)، مع التحكم في فكر التمكين بديلًا عن ظواهر الاستيلاء، ثم تعميم تطبيق فكر اللامركزية ليسيطر على التشوه المديني القادم بعداوة مدينية حضرية، ج.) يفتقد زائر المناطق التقليدية اليوم في العاصِمة القدرة على تكوين وعي فراغي في أيً تجربة حركية زمنية يمرُ بها. لا يتعلق الحديث بسائحٍ راغب في حركةٍ وانتقالٍ للتنزه والاستمتاع بالمعالم التذكارية التراثية التي تركها الأوائل، إنما الحديث عن حياة شعب افتقد الإحساس بالراحة والمتعة التي استشعرهما أجداده حينما يتجولون في تلك المناطق. نتيجة هذه الدراسة انطلاقًا من تجربة وعي فراغي أنه يُمكن للمصمم الحضري تكوين اتجاهًا بنائيًا يعيد رسم الصورة الحضرية لمدينة القاهرة، في أجزائها التقليدية. فالمردود الذي يكونه تراث عِمارة وعُمران المِصريون في تلك المنطقة –ومناطق القاهِرة

العاصِمة– يدفع بابتكار اتجاهًا لتقسيم المدينة لأنساق وعي فراغي مُستدامة تتباين اختلافاتها باختلافِ التجربةِ المَشهدية.

أما **المُكتسبات** فثلاثة: أولاها– تخُص الجهات العُليا المنوطة بصياغة الغايات والرؤى ومتابعة تحقيق الأهداف: أ.) مراجعة المُخطط الشامل طويل المدى، ووضعها بشكل لا يتعدى مجرد الرؤى المستقبلية الراكزة على غايات حياتية مدينية رحبة، أما فيما يخُص ميدان العِمارة والعمران ففيه اليوم تتسارع التقنية بمتوالية هندسية، لذا فعلى المختصين الاعتماد على المخططات الشاملة متوسطة وقصيرة المدى، تلك القابلة لتلبية متطلبات الناس الفعلية في حياتهم حالًا، ب.) بعث وتثمين دور المختصين في عِمارة وعُمران المدائن الحضرية، وتكليفهم بمراجعة الأفكار والنظريات والطرائق التي استفاد بها الغرب منذ مُنتصف الألفية الفائتة لجعل مدائنهم مُفضلة وقابلة للعيش فيها، ثم رسم توجه واضح للوصول بما استفاد به الغرب لنستفيد به في مدائننا الحضرية، ج.) تصويب الفكر المُندفع نحو العولمة والتحديث بغيرِّ إمكانيةٍ مجتمعيةٍ أو تقنيةٍ حقيقية، ذلك بالكف عن ملاحقة الغرب المتقدم في الاتجاه نحو تنفيذ أفكارهم المستقبلية دون الارتكان إلى الخطوات الإجرائية التي بنى الغرب عليها توجهاته المدينية منذ أكثر من ستين عام، د.) التعود على بناء الفكر والواقع في طبقاتٍ متراكمة، مع الحفاظ على توالي الطبقات دون القفز فوقها نظريًا فقط في مؤسسات التعليم. ثانيتها– تخُص الممارسة المهنية الاحترافية: حيث اكتفت المهنة بإنشاء نقابة للمهندسين المكتفية بدورها بتقديم أنظمة خدمات مُجتمعية واقتصادية إنما لم تهتم مُطلقًا بمستوى المختصين؛ أيّ كما فعلت الدول المتقدمة، لذا يجدر مراجعة: أ.) مستوى المُمارس النقابي وفق الوعي بالاختصاصات المطلوبة في الواقع الحاضر، ب.) توزيع المختصين على محلات العمل وفق إمكانيات المِعمار المُختص ومتطلبات السوق؛ أيّ من يفعل ماذا؟ فلا يجوز أن تظل المدائن الحضرية حَتَّى الآن بلا مُختص في التصميم الحضري، الذي هو شغله الشاغل عِمارة وعُمران المدائن الحضرية (على مستوى المحليات وإدارة المدائن الحضرية). ثالثتها: تَخُص المؤسسة التعليمية: حيث لم تتغير النظرة التقليدية لِمهنة العِمارة والعُمران منذ أن أُنشئت كليات الهندسة لتضُم في أروقتها أقسام العِمارة والتخطيط، لتنضم إلى كليات الهندسة الحكومية معاهد عليا عامة وخاصة، بيد أنه لم تتغير لا الغاية ولا الرسالة ولا الرؤية بما يفيد الواقع المهني؛ والدليل ظواهر حالة العِمارة والعُمران المديني الحضري الآني. أما المؤسسات التعليمية فبحاجة لمراجعة مناحي: أ.) المُصطلحات والمفاهيم الأولية، ليأتي في مقدمتها المعني الشامل للعِمارة Architecture كاختصاص عام يضم مستويين اختصاص احترافيين هما: التصميم والتخطيط، كما أن كُلّ مستوى اختصاص له ثلاثة مقاييس: كبير ومتوسط وصغير، كما أن كلا المستويات والمقاييس المنوط بهما مجالات اختصاص على المستوى النظري: التخطيط وتخطيط المدن، عِمارة وعُمران الكتلة النقية، تصميم وتخطيط المواقع، التخطيط والتصميم الحضري، التصميم الداخلي والتصميم الخارجي، بينما على المستوى التنفيذي هناك: تقنيات البناء والتنفيذ والتقييم، وكلها لها مُختصون ذوي ثقافة وتعليم مُختلف. ب.) مراجعة الرؤى التعليمية لخريجي أقسام العِمارة والعُمران على مستوى النظرية والتطبيق، حيث من المفترض أن تختلف تمامًا المناهج والمقررات الدراسية المعنية بتخريج مِعمار مُصمم أو مُخطط، أو مِعمار مُنفذ أو تقني فني؛ فالأول يحتاج إلى خلفية علمية نظرية وتعلم مهارات وفنيات مُختلفة تمامًا عن المهارات المطلوبة من المِعمار والمخطط التنفيذي، ج.) لذا فمن الضرورة بمكان مراجعة الخطة العامة للسياسة التعليمية في توازنٍ مع متطلباتِ سوق العمل، بحيث تظهر بوضوح مسئوليات الخريج وفقًا لمتطلبات السوق المتشوق لخريج واعي فاهم لاختصاصه الدقيق؛ بعيدًا عن الممارس العام غيرَّ المُختص، د.) ربط احتياجات السوق المهني بأعدادٍ تلتزم بها الجامعات خاصة في الاختصاصات النادرة.

في حين أن الدروس المُستفادة وثيقة الصلة بهذا العمل هي: أن حالة القاهِرة العاصِمة تتأرجح بين كونها مدينة غيرَّ قابلة للعيش فيها إنما تظل مُفضلة عند قانطيها من القاهريين وممن هم ليسوا لهم أصولٌ قاهرية ويقيمون فيها وحَتَّى لزائريها. أما صعوبة العيش فممثلة في المشكلات المدينية التي تواجه القاهِرة اليوم ناتج ارتفاع الكثافات السكانية والبنائية عن الحد الذي يجعل المدائن الحضرية قابلة للعيش، بينما الأفضلية فليست آتية فحسب من تلبية العاصمة لمتطلبات قاطنيها وزائريها بأكثر مما تُقدمه أيّ مدينة مِصرية أخرى إنما فيما يروه مُفضليها من رؤى للأفضلية تجعل أهليها راضخين، لا يرغبون في مغادرتها لمكان آخر بأيِّ حالٍ؛ ممثلة تلك الرؤى في الارتباط النفسي العاطفي الحميم الناتج في الغالب مما تُحدثه العواصم الحضرية الكبرى من تجاربِ وعيٍ فراغيٍ عن غيرها من المدائن الحضرية الأخرى. لذا حاول هذا العمل تحري ظواهر عدم القابلية للعيش في العاصمة القاهِرة عبرَّ الأدبيات المنشورة والوسائط المرئية والسمعية، ليذهب أبعد من ذلك في اتجاهه نحو التعرف على معايير أفضلية العاصمة وأسباب التمسك بالإقامة فيها، وشرائط الخروج، كان ذلك عبرَّ استطلاع رأي مديني رحب. ثم انتقالًا من نتائج ما فات نحو استكشاف الكيفية التي يُمكن بها جعل المدينة العاصمة جامعة للأطراف المعضلة؛ أيّ بين أنها عاصمة حضارية حضرية مُفضلة وقابلة للعيش فيها.

جاء الطرح عبرَّ تقديم منظور فكري جديد له مبدأين: أ.) فكر التفريغ المديني، المبني على الخروج برغبةٍ بديلًا عن الإزالة والطرد، كأساس لخفض الكثافة في الحجر والبشر، الأمر الذي يُتيح لقاطني العاصمة وزائريها الباقين التحرك والعيش فيها، ب.) فكر الوعي الفراغي المُنشيء لتجارب تجعل من المقيمين والزائرين مُتعلقين بالمدينة العاصمة، مُفضلين لها، لما تحمله تلك التجارب من وحي ما يُحبون أن يرتبطون به. أما المبدأ الأول فيحتاج لتصويب فكر المخطط الشامل بأبعاده الثلاثة، ليكتفي بعيد المدى بأفكار التنمية الشاملة المستقبلية، أما البعدين متوسط وقصير المدى فلازم تفعيلهما لخاطر الجيل الحالي، الذي بات يعاني أكثر من غيرَّه مما تلاقيه العاصمة اليوم، في حين تُلح

تجارب الوعي الفراغي في تفعيل دور فن علمي قديم– ذائع الصيت نظريًا– ليُعاد بعثه على تطبيقًا وتجريبًا. لتأتي التوصية لتدعو المختصين بضرورة التمهل لمراجعة مسألة الانفصال البائن بين النظرية والتطبيق: أ.) فعلى مُعد المُخطط الشامل أن يؤسس مُنطلقاته على دوافع رؤية الواقع الراهن في مستوياته الدنيا، الأمر الذي يحتاج لتفعيل دور المُصمم الحضري. مع الأخذ في الاعتبار أن المخطط الشامل بعيد المدى، ذا رؤى فكرية عُليا، إنما مدائن مِصر تحتاج إلى مخطط شامل متوسط وقصير المدى، كما أن المخطط قصير المدى لايُمكنه أن يعمل إلاَّ من خلال تفعيل نظريات وطرائق وآليات التصميم الحضري، ذلك الفن العلمي الذي لا يُطبق في الحقيقة في الوضع الراهن، فهذا ما تحتاجه مِصر لمدائن قابلة للعيش فيها. أما المدائن المفضلة فتحتاج رؤى مخطط شامل بعيدة المدى، إنما الفرق بينهما كبير؛ بيد أنه منطقي، ب.) البحث عن دور للمؤسسات التعليمية في تخريج مُختص واعٍ بمُشكلات المدائن الحضرية المِصرية تخطيطًا وتصميمًا حضريًا، الأمر الذي يتطلب مراجعة الحاصل في المستوى الاحترافي المهني: تَعليمًا ومُمارسة في ميدان العِمارة والعُمران، ج.) دفع المؤسسات المهنية نحو ضرورة الاستفادة من مجال اختصاص عِمارة وعُمران المدائن الحضرية (التصميم الحضري) بديلًا عن الحاصل اليوم في إدارة المدائن الحضرية بمهندس اختصاصه عام. مع التوصية بإجراء: أ.) دراسات تجريبية مجتمعية– نفسية لمعرفة أسباب عدم تفضيل ممن هم ليسوا من أبناء القاهِرة الخروج منها، رافضين العودة لموطنهم الأصلي حَتَّى وإن توافرات كافة سبل الحياة فيها، ج.) دراسات تجريبية مِعمارية عُمرانية من منطلق الفهم الصحيح لمجال اختصاص التصميم الحضري– لجعل مدينة القاهِرة قابلة للعيش فيها.

خاتمة: مدينة القاهِرة العاصِمة في حاجة ماسة لتفعيل دور المصمم الحضري، بيد أن الحل كامن في أن نعيد الكَرّة مرات؛ ليتم اختراع العجلة من جديد. فالقاهرة في احتياج ضروري للعودة لما فعله الغرب في سِتينيات القرن الفائت. فعلى المُخطط المُصمم المَديني المِصري المُعاصر أن يتخذَ المسار من بدايته؛ أيَّ سياقية وطبقات مُضافة ونسقية وتأويلية وسيميائية؛ ثم دعم الجمال والطابع؛ فالتوافق البيئي والتقنية فائقة الصغر؛ ولا يُعرف ما يستجد، أما المُخالف في الرأي فعليه، دون أن يذكر بأن ما يُشار إليه بفنون وعلوم بالية لم يعد الغرب يتبعها؛ فالقاهِرة العاصِمة تكاد أن تُصبح مَدينة غيرَّ قابلة للعيش فيها.

شكر وتقدير: لِكُلِّ من ساهم في تطوير معرفة الباحثين تجاه المسائل؛ فالشكر دائمًا موصول لمن اعتنى بالاستبيان وشغله ما فيها بالمناقشة، لعامة الناس وخاصتهم على الشبكة المعلوماتية وفي الشارع القاهري ولأعضاء هيئة التدريس وطلاب كلية الهندسة جامعة عين شمس وأكاديمية الشروق المحترمين.

المراجع

[1] UN-Habitat, "Cairo: a City in Transition," American Univeristy in Cairo Press and UN-HABITAT, Cairo, 2011.

[2] B. Brolin, Architecture in Context", Fitting New Buildings with Old, New York: Van Nostrand Reinhold Company, 1980.

[3] C. Alexander, H. A. Neis, A. Anninou and I. King, A New Theory of Urban Design, London: Oxford University Press, 1987.

[4] دار ويليم ميرسرالمُتخصصة، "الدراسات المدنية والإنسانية،" دار ويليم ميرسر المُتخصصة، بيروت، 2007.

[5] علاء القمحاوي و أحمد عبدالفتاح، ""وسط البلد".. سوق عشوائية لإمبراطورية الباعة الجائلين،" 28 أغسطس 2012. [متصل]. Available: http://www.almasryalyoum.com/node/107620 6. [تاريخ الوصول 25 أبريل 25].

[6] A. Zaazaa, "Cairo: The Multi-Schizophrenic City," 11 April 2012. [Online]. Available: http://cairomsc.blogspot.com/. [Accessed 25 April 2013].

[7] J.-E. Hwang and K. Koile, "Heuristic Nolli Map: Representing the Public Domain in Urban Space," 1 July 2003. [Online]. Available: http://publications.csail.mit.edu/abstracts/abstracts05/hwang-koile/hwang-koile.html. [Accessed 3 May 2013].

[8] J. Jacobs, The Death and Life of Great American cities, Penguin Books, 1961.

[9] I. DeWolfe, "Townscape," *Architectural Review,* vol. Vol. 106, pp. pp. 355-362, December, 1949.

[10] K. Lynch, Good City Form, Cambridge : MA, MIT Press, 1981.

[11] D. Watson, A. Plattus and R. Shibley, Time-Saver Standards for Urban Design, USA: The McGraw-Hill Companies, Inc., 2003, p. 4.9.1.

[12] UN-Habitat, "Report of the World Commission on Environment and Development," United Nations, 1987.

[13] A. Krieger, et al, Urban Design, Minneapolis, London: The University of Minnesota Press, 2009, p. P.: 17.

[14] J. Long, Urban Design: Typological Procedure and Products, London: Eleseveir, 2005, pp. 24-26.

[15] H. Barton, G. Davis and Guise, Sustainable Settlements: A Guide for Planners, Designers and Developers, Luton, the Local Government Management Board, 1995.

[16] Royal Town Planning Institute, "the Education of Planners," RTP, London, 1991.

[17] G. Cullen, The Consise Of Townscape, London: Architecture Press, Elsevier, 1961, p. P. 199.

[18] M. Carmona, T. H. Tiesdell and T. Oc, Public Places-Uraban Spaces: The dimensions of Urabn Design, New York: Achitecture Pree, 2010.

[19] D. Gosling and B. Maitlan, Concepts of Urban Design, London: Academy Edition, Martin's Press,, 1984.

[20] A. Cuthbert, Design Cities: Critical Reading in Urban Design, London: Blackwell Publishers, Ltd., 2003, pp. 23-27 and 76-100..

[21] K. Lynch, The Image of the City, London: Massachusetts Institute of Technology, 1960.

[22] K. Lynch, What Time is This Place?, Cambridge: MIT Press, 1972.

[23] K. Lynch, City Sense and City Design: Writings and Projects of Kevin Lynch, Cambridge MA and London: MIT Press, 1990.

[24] C. C. Collins and G. R. Collins, Camillo Sitte: The Birth of Modern City Planning, New York: Libary of Congress, 1986.

[25] R. Krier, Urban Space, New York: Academy edition, Rizzoli, 1979.

[26] **عبد الرحمن بن محمد إبن خلدون، مقدمة إبن خلدون، بيروت، لبنان: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم،**، 2001.

[27] D. Thomas, Architecture and Urban Life: A Vision for the New Age, New York: Archtecture Press, 2003, pp. 82-96.

[28] R. Krier, Urban Space, London: Academy Edition, 1997.

[29] R. Trancik, Finding Lost Space: Theories of Urban Design, John Wiley & Sons, June 1986.

[30] G. Shane, Contextualism, A.D. Architectural Design, 2000, 1976.

[31] T. Schumaker, Contextualism: Urban ideals and deformations, Casabella, (359/360), (pp. 78-86)., 1971.

[32] J. Steel, The Architecture of Rasem Badran Narratives on People and Place,, Thames& Hudson Ltd., 2005, pp. 179-186.

[33] C. Rowe, Collage City, A.R. Architectural Review, 1975.

[34] J. Antoniou, Histroic Cairo: A Walk Though the Islamic City, Cairo: American University in Cairo Press, 1989.

[35] A. e. Christopher, A Pattern Language, London: Towns, Building, Construction, and New York: Oxford University Press, 1977.

[36] E. Williams, O. D. W. and D. Watson, Sustainable Design: Ecology, Architecture, and Planning, New York: John Wiley Press, 2007.

[37] **رضا سيد إبراهيم، "حقائق عن النمو العشوائي،" تأليف *المؤتمر السنوي الأول لتخطيط المدن والأقاليم*، القاهرة، 1986.**

[38] G. Watson and I. Bentel, Identity by Design, London: Architecture Press & Elsevier Ltd, 2007.

[39] D. Behrens, Cairo of the Mamluks, Tauris, London, New York , 2007.

[40] وزارة الأثار المصرية، "الاثار الاسلامية بالقاهرة،" 4 نوفمبر 2012. [متصل]. Available: http://ebtsamtelshark.blogspot.com/. [تاريخ الدخول 5 مايو 2013].

[41] A. Christopher, H. Neis, A. Anninou and I. King, A New Theory of Urban Design, Oxford: Oxford University Press, 1987.

[42] لمعي مصطفى صالح، التراث المِعماري الإسلامي في مصر، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة، 1984.

[43] علامات اون لاين –وكالات، "خسائر تتعدى 23 مليار جنيه بسبب الازدحام المروري فى القاهرة،" 7 مارس 2012. [متصل]. Available: http://www.alamatonline.net/l3.php?id=24583. **[تاريخ الدخول 6 مايو 2013]**.

[44] ا. أ.ش. أ.، "برلمانيون و"شفافية" في زيارة للمناطق العشوائية خلال أيام،" 6 مايو 2012. [Online]. Available: http://www.masrawy.com/news/egypt/politics/2012/June/5/5075610.aspx. [Accessed 6 مايو 2013].

[45] J. Mcgirk, "Remembering Life in Arcosanti, Paolo Soleri's Futuristic Desert Utopia," 13 Novemer 2004. [Online]. Available: http://www.wired.com/design/2013/04/arcosanti-paolo-soleri/. [Accessed 6 May 2013.**[**

[46] C. Moughtin and P. Shirley, Urban Design: Green Dimensions, London: Architectural Press is an imprint of Elsevier, Second edition 2005..

[47] D. Holze and D. Media, "greenliving.nationalgeographic.com," [Online]. Available: http://greenliving.nationalgeographic.com/ecofriendly-mean-2415.html. [Accessed 6 May 2013.**[**

ملحق 1: نموذج الاستبيان الذي تم توزيعه علي عينة عشوائية من سكان القاهرة بمساعدة الطلاب بجامعة عين شمس وأكاديمية الشروق عام 2010.

"دراسة تجريبية حول حالة (القاهـــرة) العاصمة:
أهي مدينة مفضلة أم غيرّ قابلة للعيش فيها؟"

تعاني مدينة (القاهرة) العاصمة من مشكلات مجتمعية وحضرية من تكدس وازدحام وبطالة وتسول وتحرش ومناطق غيرّ رسمية شأنها في ذلك شأن الأغلب الأعم من دول العالم شماله وجنوبه- المتقدم والنامي- الغربي والعربي إلاّ قليلاً. إنما تظل هذه المدينة الساحرة الآثرة الخالدة في قلوب وعيون المصريين درة مكنونة. **فالهدف** من الاستبانة هو التعرف علي: أ.) هل بالفعل نسبة كبيرة من المصريين يفضلون الإقامة في (القاهرة) العاصمة عن أيّ مدينة مصرية أخرى، ب.) إن كانت النسبة عالية بالفعل فما هي أسباب تفضيل قاطني وزائري (القاهرة) العاصمة عن أيّ مدينة مصرية أخرى، حتىّ إن كانوا من غير المولودين بها: معايير أفضلية المدن من وجهة نظر المصريون، ج.) فما إن كانت (القاهرة) العاصمة مدينة غيرّ قابلة للعيش فيها فما هي أسباب تعلق المصريين (مقيمين وزائرين) علي الاستمرار في الإقامة فيها، د.) إن أمكن تحقيق المميزات التي تتمتع بها (القاهرة) العاصمة في أيّ مدينة أخرى فهل سيغادرها الذين لا يقدمون بحياة جيدة فيها، هـ.) مدى قبول المصريين لفكر تفريغ (القاهرة) العاصمة.

أقسام الاستبانة: أولاً- بيانات شخصية: (1- 4)، ثانياً- أوجه الارتباط بمدينة (القاهرة) العاصمة: (5- 14)، ثالثاً- أوجه أفضلية المدينة (كمعايير): (15 - 14)، رابعاً- فكر التفريغ والانتقال: (19- 25).

تشكرك لصبرك ومشاركتك القيمة ، سنطلعك بإذن الله علي النتائج؛ من فضلك إملأ ما تراه يناسبك.

من فضلك ضع علامة (×) داخل المربع الذي اخترته، عدا في أسئلة رتب اختياراتك.

أولاً: البيانات الشخصية

1- الأسم (إن رغبت).....
2- السن .....
3- الحالة التعليمية (برجاء تحديد أعلي درجة علمية حصلت عليها).
- يقرأ ويكتب.
- مؤهل متوسط.
- مؤهل فوق متوسط.
- مؤهل عالي جامعي.
- أعلي من الجامعي (دراسات عليا)

4- أين تسكن؟ حدد الشياخة أو الدائرة أو المحافظة؟
- ريف .. من فضلك أذكر اسم المنطقة .....
- حضر.. من فضلك أذكر اسم المنطقة .....

ثانياً: أوجه الارتباط

5- هل أصولك قاهرية أم وافد من مدينة أخرى؟
- نعم.
- لا.

6- **قد مضي علي وجودك في مدينة القاهرة (العاصمة)؟**
- أقل من خمس سنوات.
- 5-10 سنة
- 10-15 سنة.
- أكثر من 15 سنة

7- **حدد علاقتك بالقاهرة..**
- مقيم (انتقل إلي السؤال 12)
- زائر

8- **حدد أسباب زيارتك للقاهرة (العاصمة)**
- التعليم
- العلاج
- العمل
- الترفيه
- أخري (حدد .....)

9- ما هي المدة التي تستغرقها لقضاء مصالحك داخل القاهرة؟
- من 30-60 دقيقة.
- ساعة- 2 ساعة.
- من 2-4 ساعات.
- من 5إلي باقي اليوم.
- أكثر من يوم

10- هل تفضل الإقامة في (القاهرة) العاصمة عن موطنك الأصلي؟
- نعم. انتقل إلي السؤال 12.
- لا أتمني العودة إلي موطني الأصلي.
- لا أفضل الانتقال إلي مدينة أخري غير هذا.

11- ما هي أسباب رفضك لإقامة في مدينة (القاهرة) العاصمة؟ ..
1.
2.

12- ما هي أسباب تعلقك بمدينة (القاهرة) العاصمة؟ ..حدد الثلاثة أسباب
1.
2.

ثالثاً- معايير التفضيل

15- رتب المعايير التي تجعل من القاهرة العاصمة مفضلة من وجهة نظر.
- الترفيه الرياضي: الملاعب الرياضية
- الوضع الصحي: جودة العلاج وكفاءة المستشفيات
- الوضع الأمني: نسبة حدوث الجرائم لعدد السكان
- الوضع الاقتصادي، البنوك والاستثمارات
- مقدار الحرية الشخصية والرقابة المجتمعية عليها
- الترفيه الثقافي/ المجلات والسينما والمسارح
- الترويح: الأندية المجتمعية، المطاعم، الحدائق العامة
- مستوى التعليم: المدارس والمعاهد والجامعات
- توفر أماكن السكن الملائمة لحياة كريمة
- عدم وجود أماكن عشوائيات
- الحركة والانتقال: الطرق ومواقف السيارات
- الميادين والساحات العامة
- أن يكون للمدينة طابع ومعماري عمراني متفرد
- رفع قيمة المناطق التراثية والأثرية
- الاهتمام بوجود معنى للمكان من خلال سياق مجتمعي
- نظافة الشوارع والفراغات البينية
- توافر الاحتياجات بأسعار معقولة

16- هل إذا توافرت معايير الأفضلية التي اخترتها مسبقاً هل ستغادر القاهرة العاصمة أم ستظل لأقيم بها؟
- أغادر
- لا أغادر
- لا أعرف

17- من وجهة نظرك: مدينة القاهرة العاصمة أهي مدينة مفضلة أم غيرّ قابلة للعيش فيها؟
- المفضلة
- غيرّ قابلة للعيش فيها
- لا أعرف (سؤال صعب)

18- هل سألت نفسك مرّة السؤال السابق
- أبداً
- دائما
- لا أعرف (سؤال صعب)

إن ابديت تدوين شيئاً يدور في بالك.. لا تتردد.. من فضلك دونه فوراً..

.....

- رابعاً- فكر التفريغ: (القاهرة) العاصمة.. مدينة مفضلة أم غيرّ قابلة للعيش فيها

19- هل ترى أن مشكلات مدينة القاهرة العاصمة في ارتفاع لكثافة السكانية والبنائية عن الحد الطبيعي؟
- نعم
- لا
- لا أعرف

20- إذا كانت إجابتك بنعم .. هل توافق علي ترك (القاهرة) العاصمة؟
- نعم
- لا
- لا أعرف

21- إذا كانت إجابتك بلا .. أذكر سبب وحيد أو أكثر لتمسكك بالقاهرة
1.
2.
3.

22- هل توافق علي فكر نقل المناطق العشوائية (غيرّ الرسمية)؟
- نعم
- لا. أذكر السبب.
- محايد أعطي السبب.....

23- هل توافق علي رفع رسوم الخدمات التي تقدمها مدينة (القاهرة) العاصمة، التي لها ما يماثلها في المدن الأخرى؟
- نعم. أذكر الأسباب.
- لا. أذكر الأسباب

23- هل توافق علي نقل المنشآت الحكومية: السفارات، مراكز البحوث، الإدارات الحكومية من (القاهرة) إلي مدينة جديدة؟
- نعم.
- لا. (أذكر السبب)

24- هل توافق علي منع البناء في (القاهرة) العاصمة لسنوات قادمة؟
- نعم.
- لا
- لا أعرف.

25- هل تريد أن تكون (القاهرة) العاصمة أفضل مدينة في العالم؟
- نعم.
- لا
- لا أعرف.

26- هل تعرف أنه لكي تكون كذلك يجب أن تتفرغ من نصف سكانها وزائريها ومناطقها العشوائية.
- نعم.
- لا
- لي رأي آخر

27- من فضلك بين رأيك، إنما أرجوك لا تقل لمّ أخرج أنت من (القاهرة) العاصمة..

.....

28- .....

شكراً جداً .. اتمنالك معنا.. إنما الأمر يستأهل التعب.. لخاطر عيون (القاهرة).